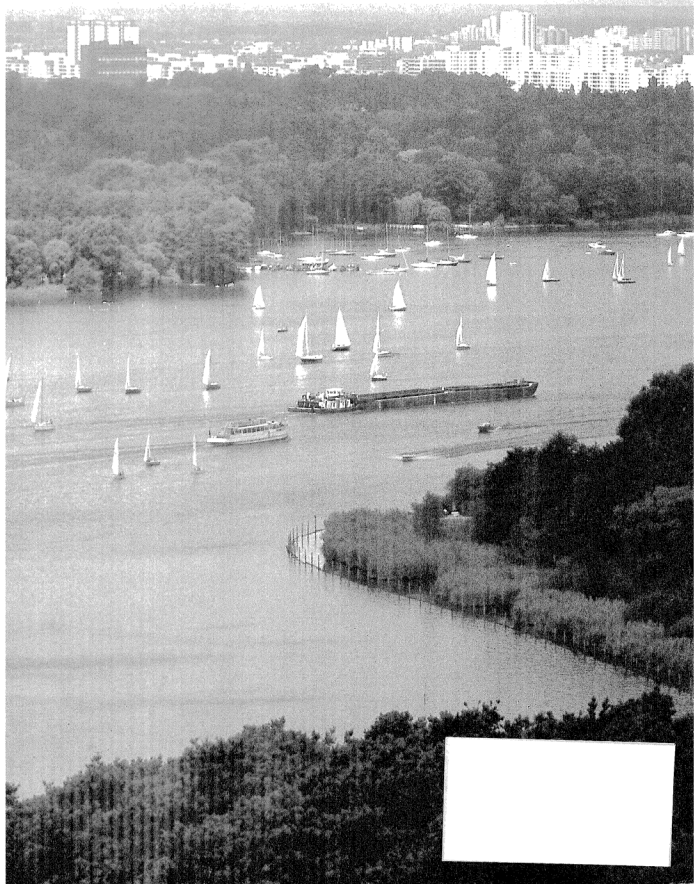


فكر وفن

٤٦





خلال هذا العام، احتفل أهالي برلين (الغربية) و(الشرقية) على حدّ السّواء بمرور ٧٥٠ عاما على تأسيس هذه المدينة التي تجسّد أكثر من غيرها من المدن الأوروبية مآسي هذا العصر وتناقضاته، بالإضافة الى انها رمز لجراح الامة الألمانية التي تعاني منذ نهاية الحرب العالمية الثانية تراجيديا التقسيم والانفصال. وبهذه المناسبة اقيمت في شطري برلين حفلات موسيقية، وعروض فنية ومسرحية، كما نظّمت معارض ضخمة عن برلين التي كانت ولا تزال قلب المانيا النابض. ومن بين هذه المعارض يمكننا ان نذكر معرض «برلين، برلين»، و «برلين وأنا»، ومعرض آخر قدمت من خلاله أهمّ مراحل الفن الالمانى الحديث. وقد اختارت مجلة «فكر وفن» في عددها هذا عددا من النصوص لكتاب المان واوروبين يعبرون فيها عن أحاسيسهم ومشاعرهم تجاه هذه المدينة التي «لاتبرأ من عللها» على حدّ تعبير الكاتب الالمانى الكبير «غونتر غراس» والتي لا تزال رغم الأمها، عاصمة للابداع وللتجديد وللفانازيا مثلما كانت دائما.

وفاء منا لما كنا وعدنا به قراءنا سابقا، نقدّم في هذا العدد ترجمة لقصيدة من أهم قصائد الشاعر الغنائي الكبير «راينار ماريا ريلكه» اغنية حب وموت حامل العلم كريستوف ريلكه. كما نقدم ترجمة لسنت قصائد قصيرة ومقطعات من كتابه الشهير «كراسات لورينز بريجه». ونحن نعد قراءنا بتقديم نماذج من مؤلفات أهم الشعراء والكتاب الالمان في اعدادنا القادمة.

أما النص الفكري الذي ارتأينا اختياره في عددنا هذا فهو للفيلسوف الفرنسي «جون بوفري» المتخصص في فلسفة «هيدجر» وفيه يتحدث عن لقاء بين الشاعر الفرنسي «رني شار»، و«مارتن هيدجر» في «البروفانس» الفرنسية. وخلال دار الحديث حول العلاقة بين الشعر والفكر من جهة، وبين الشعر والفلسفة من جهة أخرى. ونرجو ان يساهم هذا النص في تعميق النقاش الدائر الان في اوساط المبدعين والنقاد العرب حول مكانة الشعر العربي في العصر الحديث.

ومواصلة لما شرعنا فيه منذ العدد ٤٢، نقدم في عددنا هذا ملقا عن اليمن. غير اننا نلفت انتباه قرائنا الى أننا لم نتمكن من تقديم نماذج من الادب اليمني المعاصر وذلك لان الكتاب والشعراء اليمنيين لم يغا بها وعدونا به. ولذا اقتصرنا على «رحلة خيالية الى اليمن السعيد» وهي تحتوي على نص تاريخي هام للمؤرخ الايطالي «سبينيتوموسكاني» يتحدث فيه عن خصائص الحضارة اليمنية القديمة، وعلى نص آخر يروي الرحلة الاولى الى بلاد اليمن والتي قام بها الرحالة الشهير «نيبور» صحبة فريق من الباحثين والعلماء وذلك لكشف أسرار حضارة اليمن القديمة. ومعلوم ان هذه الرحلة الشهيرة كانت من اوائل الرحلات التي ساعدت الباحثين والمؤرخين الأوروبيين على فهم جوانب مهمّة من حضارة قديمة وعريقة الا وهي الحضارة اليمنية. ولا ننسى ان نلفت نظر قرائنا ايضا الى انه نظم في ربيع السنة الحالية معرض ضخم في مدينة ميونيخ، أقيم فيه سوق شبيه بأسواق مدينة صنعاء وتوافد عليه آلاف المتفرجين. وقد حضر حفل الافتتاح كل من السيدين «غننشر» و«زير خارجية» جمهورية المانيا الفيدرالية، و«عبد الرحمان الارياني» وزير خارجية الجمهورية العربية اليمنية. ومن المعلوم ان هذا المعرض لا يزال متواصلا الى حدّ هذا الوقت.

EDITORIAL	1	١	الافتتاحية
INHALTSVERZEICHNIS	2-3	٢ - ٣	الفهرس
BERLIN- die Stadt, deren Wunden nie heilen 750 Jahre Berlin	6	٦	بمناسبة الاحتفال بمرور ٧٥٠ عاماً على تأسيس برلين: المدينة التي لا تبرا من علها
Kurt Tucholsky: Gott möge sich dieser Stadt erbarmen	8	٨	كورت توخولسكي: فاليفظ الله هذه المدينة.
Klaus Mann: Das Sodom der Neuzeit	9	٩	كلوس مان: برلين: سدوم العصر الحديث
Jean Michel Palmier: Das Berlin der Zwanziger Jahre	12	١٢	جون ميشال بالمير: برلين خلال السنوات العشرين
Karen Blixen: Berlin während des Kriegeres	14	١٤	كارين بليكسن: برلين أيام الحرب.
Jean Francois Fogel: Der Roman «Berlin Alexanderplatz» von Alfred Döblin	16	١٦	رواية الفريد دوبلن: برلين: ساحة الاسكندر. جون فرانسوا فوجل: جسيم برلين الثلاثينات
Jacques Tebeul: Berlin — Hauptstadt der Welt	22	٢٢	جاك تيبول: برلين عاصمة العالم.
Michel Decoust: Ein Morgen in Berlin-Ost	24	٢٤	ميشال دكوست: ذات يوم أحد في برلين الشرقية
Klaus Schlesinger: Drei Berliner Träume	26	٢٦	كلوس شليسنجر: ثلاثة أحلام برلينية.
Vladimir Nabokov: Der Name Berlin klingt wie das Läuten einer Glocke	30	٣٠	فلاديمير نابوكوف: اسمها برن كما الجرس
Günter Grass: Die Stadt, deren Wunden nie heilen	30	٣٠	غونتر غراس: المدينة التي لا تبرا من علها
Peter Schneider: Wenn das Flugzeug in Berlin landet	31	٣١	بيتر شتايدر: حين تحط الطائرة في مطار برلين
Hassouna Mosbahi: Auf der Suche nach Mohamed Ali Hammi in Berlin	34	٣٤	حسونة المصباحي: بحثاً عن محمد علي الحامي في برلين
JEMEN-DOSSIER Eine Reise in den «glücklichen Yemen»	40	٤٠	رحلة الى اليمن السعيد
Spittino Moscani: Betrachtungen zur Geschichte des alten Yemen	43	٤٣	سبيتينو موسكاني: ملاحظات حول تاريخ اليمن السعيد

Die erste europäische Expedition in den Yemen: Carsten Niebuhr und die Arabische Reise 1761-1767	48	٤٨	الرحلة الأوروبية الأولى لليمن السعيد: رحلة كارستن نيبور إلى بلاد العرب ١٧٦١ - ١٧٦٧
Auszüge aus den «Königlichen Instruktionen: Für die Teilnehmer der Expedition	54	٥٤	فقرات من القرار الملكي: والتعليمات الموجهة إلى أعضاء البعثة
Die Reise Hermann Glasers in den Yemen	56	٥٦	رحلة جلانز إلى اليمن السعيد
Die Restauration der Koran-Handschriften von Sana'	60	٦٠	انتقاؤ مخطوطات قرآنية نادرة
Heinz Schlaffer: Wie die Schrift unsere Kultur erfand Der Übergang von der Mündlichkeit zur Literatur und ihre Folgen	64	٦٤	هاينز شلاففر: في العلاقة بين الشفوي والمكتوب
Rainer Maria Rilke: Die Weise von Liebe und Tod des Cornets Christoph Rilke	71	٧١	راينار ماريا ريلكه: أغنية حب يموت حامل العلم كريستوف ريلكه
Rainer Maria Rilke: Auszüge aus den «Aufzeichnungen des Malte Laurids Brigg»	78	٧٨	فقرات من كتاب ريلكه: كراسات مالطة لوريدنز بريجة» انجذاب إليه يتحدث الموت والزمن
Rainer Maria Rilke: Gedichte	82	٨٢	راينار ماريا ريلكه: قصائد
Konferenz über Jean-Paul Sartre in Frankfurt	85	٨٥	ندوة حول جون بول سارتر في مدينة فرانكفورت مثقفون المان مرتابون أمام سارتر
Jean Beaufret: Dialog über den Maronenbaum Die Begegnung zwischen René Char und Martin Heidegger	86	٨٦	جون بوفري: حوار تحت شجرة كستناء (حول اللقاء بين الشاعر الفرنسي رني شار والفيلسوف الوجودي مارتين هيديجر)
Hartmut Fähndrich: Anmerkungen zu einem Übersetzer- Kolloquium im Kulturzentrum von Hammamet	88	٨٨	هارتموت فاندريخ: كلمة حول الندوة التي عقدت في المركز الثقافي الدولي في مدينة الحمامات. التقارب المبادل عن طريق الترجمة
KULTUR-CHRONIK	90	٩٠	أخبار وأحداث ثقافية
NEUE BÜCHER	94	٩٤	كتب جديدة

يقدم الناشر وداد النشر شكرهم لكل من ساهم بمعونته في إعداد هذا العدد.

إدارة التحرير: Adresse der Redaktion: Dr. Erdmute Heller, Franz-Joseph-Str. 41, D-8000 München 40

تظهر مجلة «فكر» العربية مؤقَّتاً مرتين في السنة: ثمن النسخة ١٤ مارك ألماني. النسخة التالية ٧ مارك ألماني.
تقدّم طلبات الاشتراك إلى دار النشر.

Druck: Greven & Bechtold, Köln. الطباعة: Satz: Fotosatz Froitzheim, Bonn. صف الحروف:

ملاحظة: تتوجه مجلة «فكر» وبشكرنا إلى جميع أصدقائها وراسلينا وتعلمهم أنها ليست قادرة على الإجابة على مراسلاتهم أو الرد على اقتراحاتهم. لرعى التصوص التي
الغلاف الخارجي: رسوم على جدار برلين.
الغلاف الداخلي ١: بحيرة «هافل». مراكب شراعية.
الغلاف الداخلي ٢: مشهد من صنعاء.



برلين : ساحة «باريز» وباب «براندانبورغ»
خلال القرن التاسع عشر



برلين المدينة التي لا تريد ان تبرا من عللها

بمناسبة الاحتفال بمرور ٧٥٠ عاماً على تأسيس برلين

المجالات. وفي عام ١٧٠٩ سمى فريدريك الثاني ملك بروسيا برلين عاصمة المملكة البروسية الجديدة. ومع الثورة الصناعية في ألمانيا (١٨١٥)، أصبحت برلين المدينة الصناعية الأولى في أوروبا بأسرها. ولهذا السبب جلبت إليها أعداداً هائلة من الباحثين عن عمل. وفي سنة ١٨٤٩ أصبح عدد السكان ٤١٢٠٠٠ وفي سنة ١٨٧١ تضاعف هذا العدد. وفي سنة ١٩٠٥ بلغ عدد السكان مليوني ساكن.

وقد تسبب هذا الوضع الجديد في انفجار العديد من الصراعات الاجتماعية والسياسية يمكن ان نذكر من بينها ثورة آذار/ مارس ١٨٤٨ التي اسقطت النظام القديم. وفي سنة ١٨٧١ نصب فيلهلم الأول امبراطوراً وسُمي بيسارك مستشاراً للرايخ وأصبحت برلين عاصمة الامبراطورية الألمانية. وفيها أصبحت تتركز كل التناقضات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تعيشها ألمانيا.

الصراعات واتحدت التناقضات في برلين الشيء الذي أدى الى قيام ثورة ١٩١٨-١٩١٩ التي قادتها روزا لكسمبورغ. ثم مالبت ان سقطت سلطة الرايخ وعُدلت قامت جمهورية برلمانية ديمقراطية وهي التي عرفت بجمهورية «فيمار» (Weimarer Republik) غير ان هذه الجمهورية الجديدة لم تتمكن من معالجة المشاكل الاقتصادية والسياسية المتفاقمة. وسرعان ما ازداد الوضع تعقداً عند انفجار

خلال هذا العام احتفل الألمان شرقاً وغرباً، وكل حسب طريقته الخاصة، بمرور ٧٥٠ عاماً على تأسيس برلين، هذه المدينة التي أصبحت حسب تعبير «الن بولوك» (ALLAN BULLOCK) «مزمراً للقرن العشرين». وهو القرن الذي شهد حروباً وصراعات دامية وقواجم كثيرة من بينها فاجعة تقسيم برلين.

ولقد كانت برلين خلال التاريخ مركزاً سياسياً واقتصادياً وعلمياً وثقافياً تجسدت فيه بامتياز العبقرية الألمانية. وفي البداية كانت برلين عبارة عن مدينتين صغيرتين هما «برلين» و«كولن» (KÖLN) تقعان على ضفاف نهر السبري (SPREE) وخلال حرب الثلاثين سنة (١٦١٨-١٦٤٨) انخفض عدد سكانها من ١٢٠٠٠ الى ٦٠٠٠. ولهذا السبب قرّر الملك «فريدريك فيلهلم» (FRIEDRICH WILHELM) الملقب بالملك العظيم السماح للعديد من الاجانب والمنفيين وخاصة من اليهود ومن الموهنوت بالاستقرار في المدينة. وهو عامل مساعد في مابعده على تطورها في جميع



فريدريك فيلهلم فون لايبنتز.



يوهان غوتليب فيخته.



غوتفريد المراهيم لينغ.



جامعة برلين عام ١٨١٠

وفي عام ١٨١٠ تأسست الجامعة التي درّس فيها كل من الفيلسوف الكبير فريدريك هيجل (HEGEL) (١٨١٨) والمؤرخ «ليوبولد فون رانكه» (L.V. RANKE) (١٨٢٥) والعالم والطبيب الاسكندر هومبولت (HUMBOLDT) (١٨٢٧).

وخلال القرن التاسع عشر أيضاً تأسست مراكز ثقافية وعلمية جديدة من بينها مسارح ومتاحف وناوادي علمية وثقافية. وعندما أصبحت برلين عاصمة الامبراطورية عام ١٨٧١ ازدادت اهميتها الثقافية والعلمية. وقد اقيمت فيها عام ١٨٧٩ «الجامعة التقنية» والتي أصبحت في ظرف زمني قصير مثلاً يجتدى في أوروبا بأسرها. ويفضل اكتشافات كل من «روبرت كوخ» (ROBERT KOCH) و«ماكس بلانك» (MAX PLANCK) والبرت اينشتاين (ALBERT EINSTEIN) عرفت العلوم الفيزيائية والطبيعية تقدماً كبيراً كان له انعكاس على المستوى العالمي.

وفي عام ١٨٨٣ تأسس في برلين «المسرح الألماني» (DEUTSCHES THEATER) كما تأسست مسارح أخرى كانت مستقلة عن سلطة الدولة. وفي عام ١٨٩٥ كانت هناك في برلين ٦٥ صحيفة يومية. وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى أصبحت برلين واحدة من أهم المراكز الثقافية والفنية في أوروبا بأسرها. غير أن استيلاء النازيين على السلطة حول برلين إلى مدينة قائمة وكثيرة. وهكذا هجرها الفنانون والمبدعون لفترة طويلة.

وبهذه المناسبة تقدم «فكر وفن» نصوصاً لكتاب مختلفين يتحدثون فيها عن جوانب متعددة لهذه المدينة التي تجسد كما ذكرنا آنفاً واحدة من أشجع ماضي هذا القرن.

الازمة الاقتصادية العالمية عام ١٩٢٩، وخلال هذه السنوات الصعبة تحوّلت برلين إلى مركز للارهاب والقتل والفوضى. وسرعان ما استغل النازيون هذا الوضع المتعفن لكي يفتكوا السلطة عام ١٩٣٣.

ومن برلين أعلن هتلر الحرب على الدول التي هزمت ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى. وبعد نهاية هذه الحرب عام ١٩٤٥ كانت برلين قد تحوّلت إلى انقاض. ودخلت قوات الدول المنتصرة المدينة وقسمتها إلى مناطق نفوذ روسية وأمريكية وفرنسية وإنكليزية.

وفي عام ١٩٤٩، وإمام تكاثر أعداد المماربين من المانيا الشرقية إلى المانيا الغربية أقامت السلطات الشيوعية التي تحكم المانيا الشرقية الجدار المقيت الذي لا يزال شاهداً على مأساة المانيا خلال هذا العصر. وكانت برلين طوال تاريخها أيضاً عاصمة للاداب والفنون والعلوم. وإبداء لم تتخلّى عن أداء دورها هذا إلا عند استيلاء النازيين على الحكم.

في عام ١٧٠٠ أسس فيها العالم «غوتفريد فيلهلم لينينتز» (GOTTFRIED WILHELM LEIBNIZ) أكاديمية العلوم البروسية وفي عام ١٧٤٠ دعى «فريدريك الكبير» الفيلسوف الفرنسي «فولتير» (VOLTAIRE) للقامة في القصر الملكي مدة ثلاث سنوات، غير أن مجد برلين الثقافي تألّق خاصة خلال القرن الثامن عشر بفضل المستنيرين الجدد من أمثال «غوتفريد إفرايم ليسينغ» (GOTTFRIED EPHRAIM LESSING) و«موسى ماندلسون» (MOSES MENDELSSOHN) و«فريدريك نيكولاوي» (FRIEDRICH NICOLAI) وهكذا تحوّلت برلين إلى مدينة «التنوير المدني» (BÜRGERLICHE AUFKLÄRUNG) وخلال القرن التاسع عشر، أصبحت مركزاً للرومانطيين الألمان. وفيها تجمع علماء وأدباء كبار يمكن أن نذكر من بينهم: الاخوة هومبولت (HUMBOLDT) والاخوة شليغل (SCHLEGEL) ويوهان ميخه (J. FICHTE) وهابنيس فون كليست (H. V. KLEIST) ونوفاليس (NOVALIS) وغيرهم كثيرين.



مغارة «فيتز» في ساحة الأسكندر عام ١٩٢٨.



فيلهلم فون هومبولت.



فريدريك هيجل

فاليحفظ الله هذه المدينة!

كورت توخولسكي

ورشة أو معمل أو إدارة، إنه أقل من يكون كائنًا بشرياً، الالة تنفث اعصابها وتزفّقها. وهو يستسلم لها تمام الاستسلام. إنه يفعل كل ما تطلبه منه المدينة. أما ان يعيش.. فهذا شيء بعيد.. ومستحيل مع الأسف.

والبرليني يمضي يومه وهو يزجر. وعندما يأتي الليل يقول بأنه تعب من العمل ولا شيء غير ذلك. ويمكن أن نعيش سبعين سنة في هذه المدينة دون أي ربح لا روحنا الابدية. ثمة وقت كانت فيه برلين آلة جيّدة. يمكن لدمية من الشمع ان تحرك يديها وجعلها أوتوماتيكيا حين نلقي في الفتحة ١٠ فينينيغات (Pfennige). أما اليوم فانه بإمكاننا ان نضع قطعاً كثيرة دون ان تتحرك الدمية.

الالة تعطّبت الآن، ولم تعد قادرة على ان تتحرك مثلما كانت تفعل في الماضي. والسبب هو كثرة الاضرابات في برلين. لماذا؟ لست ادري. هناك من يساند الاضرابات. وهناك من يقاومها. لماذا؟ لست أدري.

والبرلينيون ينظرون الى بعضهم بعضاً كما لو أنهم لا يعيشون في نفس المدينة، ولا يارسون نفس العادات. وهم يمضون الوقت في شتم بعضهم بعضاً سواء في الترامواي او في الشارع. لاشيء يجمعهم اويوحد بينهم. وهم لا يريدون ان يعرفوا شيئاً عن بعضهم بعضاً. كل واحد يعيش لنفسه وفي عالمه الخاص. وبرلين تجمع بين سلبيات مدينة امريكية كبيرة وسلبيات عاصمة من عواصم الاقليم الالمانى. وإيجابياتها يمكن العثور عليها في كتاب « المرشد الأزرق ».

وفي كل عام، حين ينطلق الى الاصطياف، يشعر البرليني انه بإمكانه ان يعيش فوق الارض أيضاً. ولذة اربعة اسابيع يجازل ان يفعل ذلك غير انه لا يفعل ذلك. انه يجهل معنى الحياة. وعندما يعود مسروراً وينزل في محطة القطارات يغمز بعينه الى خط الترام ويشعر بسعادة كبيرة لانه عاد الى برلين. الحياة؟ لقد نساها تماماً.

ومن جديد تقزع الايام اجراسها الرتيبة. وحتى وان عشنا مائة عام في برلين فان الحياة تظل كما هي دون أي تغيير. لاشيء يلج حياتنا الداخلية. ولا شيء ينشأ روحنا أو يسعدنا على الانفتاح أو على الفرح. أه برلين! برلين!

عندما قرأ رئيس التحرير هذه الفقرات، قطب حاجبيه قليلاً، واتبسم بمودة في وجه الشاب الواقف امامه وقال: وهل

ليس هناك سواء فوق هذه المدينة. ويمكننا ان نساءل اذا ما كانت الشمس تضيء فيها ذلك اننا لا نراها الا حينما تبهرنا لحظة اجتيازنا الشارع. وبطبيعة الحال نحن نحتج ضد الطقس. غير انه لا طقس في برلين.

البرليني ليس له وقت. البرليني الذي هو في أغلب الأحيان من (POSEN) أو (BRESLAU) ليس له وقت. دائماً لديه شيء يشغله، انه يتلفن. ويتواعد مع آخرين، ويصل مقطوع الانفاس الى المواعيد ومتأخراً ايضاً. انه مشغول طول الوقت. وفي هذه المدينة، لا يعمل الناس. انما يشتغلون بحمية كبيرة (حتى اللذة هي بالنسبة لهم عمل. وهم يستعدون اليها باصقين على أيديهم مصممين على الاستمتاع بها الى اقصى حد ممكن). والبرليني ليس مثابراً أو مجتهداً. انه دائماً يتحرك. غير انه نسي مع الاسف الشديد لماذا نحن من هذا العالم.

ونحن نشاهد احياناً برلينيات في الشرفات. وهذه الشرفات ملتصقات بعلب تسمى منازل. وهن - البرلينيات - يجلسن هناك ليسترحن، بين مكاشين، أو في انتظار موعد ما، أو لأنهن يكرّن قليلاً على اوقات مواعيدهن، فانهن يجلسن وينتظرن. وفجأة ينطلقن مثل السهم باتجاه التليفون في انتظار الموعد المقبل. هذه المدينة مشدودة الى عربتها. ومعقودة الجبهة هي تدور طول الوقت حول نفسها دون ان تنتبه الى انها باقية دائماً في نفس المكان وانها لم تتقدم ولو خطوة واحدة.

والبرليني لا يعرف كيف يناقش. احياناً، نشاهد شخصين يتحدثان، غير انهما في الحقيقة لا يتحدثان وانما كل واحد منهما يحدث نفسه فقط. وفوق ذلك لا يعرف البرليني آداب السماع. انه ينتظر بصبر شديد حتى ينتهي الاخر من الكلام ثم يصمت بعنف. بهذه الطريقة تدور العديد من المناقشات في برلين.

البرلينية واضحة وهي تحقت الالتباس والمراوغة، وهي في الحب كذلك. وهي بلا أسرار. انها الفتاة الشجاعة والحسنة المعشر التي يجب ان يتغزل بها شاعر الحى. والبرليني لا يستفيد كثيراً من الحياة. الا اذا كان يربح أموالاً كثيرة. وهو لا يحب ان يرافقه احد لان ذلك يعقد الحياة ويوجب كثيراً من المشاكل. انه يلتقي باصدقائه ويجاول ان يبدو جيلاً وأنيقاً وعند الساعة العاشرة تبدو عليه عوارض النوم.

والبرليني عبء لدواليب مدينته. انه عبء لها حين يركب وسائل نقلها، أو حين يذهب الى المسرح أو الى المطعم أو حين يعمل في

التي ظلت فوق رأسه منذ دخوله مكتب رئيس التحرير، ويتأثر بالغ
رفع عينيه الى السقف وقال بصوت حاد وخاشع في نفس الوقت:
ليحفظ الله هذه المدينة!».

برلين غيضة الى هذا الحد؟ الا تعلم ان لبرلين إيجابياتها أيضاً.
هدوءاً، هدوءاً، أنت لازلت شائساً على كل حال. ولا يمكنني ان
الوسمك!». وبما ان الفتى كان لا يزال فتى حقاً، وبما انه كما مؤدياً
ومعروفا لدى الجميع بدمائة اخلاقه وحسن سلوكه، فانه نزع قُبْعته

برلين : سدّوم العصر الحديث

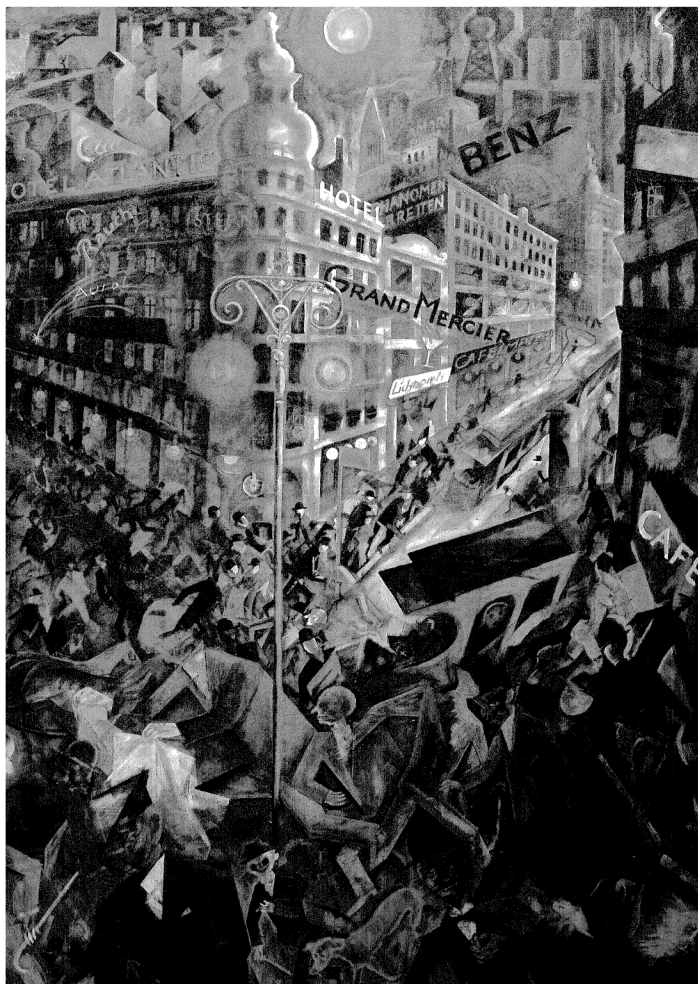
كلاوس مان

العاصمة لا تخلق : انها تمثّل . واذا ماكانت برلين العاصمة
الامبراطورية ، بفرقة سيوفها قد منحت المظهر الديناميكي
والعنيف للقومية الالمانية الفتية ، فان برلين السنوات الاولى التي
اعقبت الحرب عكست بنفس الوضوح حالة التشاؤم والانهار لدى
الامة المهزومة . «انظروا الى ، تصرخ العاصمة الالمانية المتبجعة
حتى في رأسها، انا بابل ، الامة والمدينة والاكثر فظاعة من المدن
جميعا . حتى سدوم كانت أقل مني فسادا واتما . ادخلولي اذن أيها
السادة والسيدات . ان ليالي لا مثيل لها يا ابنائي . قديما كان لنا
جيش رائع . والان لنا لذات وانحرافات رائعة! تعالوا الى حيث
نزعنا اللذة كلها! تعالوا!».

برلين رقيقة الاحساس وقاسية القلب في نفس الوقت . انها
ضجيرة ، لكنها مع ذلك شرهة طول الوقت الى الرغبات
والاحاسيس الجديدة . ولقد حاولت دائما ان تكون المركز الثقافي
والاخلاقي لالمانيا - تماما مثل باريس بالنسبة لفرنسا - غير انها لم
تفلح البتة . ويعكس العاصمة الفرنسية ، فان برلين ليست لها
موهبة الخلق وانما موهبة التنظيم فقط . ان عبقريتها ودورها
التاريخي يتمثلان في انها لا بد ان تستحوذ على كل الاتجاهات
الكامنة والمستترة في الالمانيا ، وأن تستوعبها ، وان تمنحها شكلاً
دراماتيكيّاً ثم تدفع بها الى الحد الاقصى . ان برلين هي الدماغ
الذي يشكل الاحاسيس والغرائز ، والحنين ، والضغينة في قلوب
الشعب الالمانى بدقة علمية متناهية وباناقة صحفية متميزة .

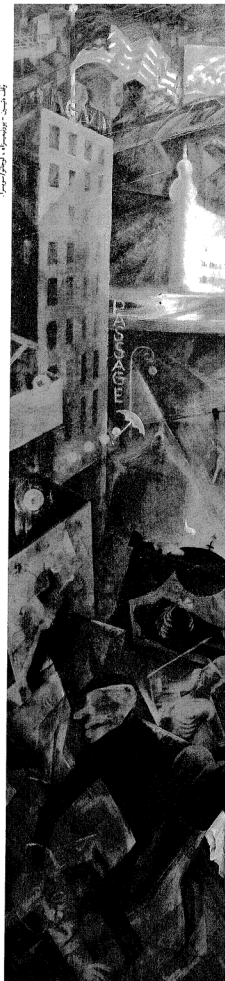


غيدورغ غروس :
جادة والكودام ، عام ١٩٢٥ .





غبورغ غروس: المدينة الكبيرة ١٩١٦-١٩١٧



برلين خلال السنوات العشرين

جون ميشال بالمبي

تقتصر على ذلك، بل أنا سمحت لجمهور المسارح والكابريهات بالاستمتاع بحفلات ترقص فيها غانيات وهن شبه عاريات. ويتحدث «غيورغ هايم» عن برلين في تلك الفترة وكأنها إله من ألهة الشر، وعالم يتميز بالفزع والربع والوحدة. أجراس الكنائس تندفق كما لو أنها «بحر من القلاع السوداء».

وفي كل الأماكن «يساعد دخان المعامل» ويلتهم المدينة. انها - اي برلين - شبيهة بإله يمد قبضته الشبيهة «بقبضة الجرار» لايري «هايم غير مشاهد حزينة وخفيفة في برلين، ويتحدث «غوتفريد بن» عن الأجواء الحزينة، وعن علب الليل المقتية بشيء من الانبهار والاشمئزاز في آن واحد.

ويرغب «ليشتنشتاين» في الهروب من المدينة ومن الشوارع الفسارحة، ومن سماء السقوف الحمراء، ليتمدّد أمام الشمس الصافية والزرقاء والكبيرة.

كيف شهدت برلين ظهور الحركة التعبيرية؟ من خلال الرسم في البداية. ذلك ان برلين أظهرت دائماً ولما كبيراً بالرسم. لقد عرض فيها «موتش» (MUNCH) لوحاته الفضاخية وقبله شهدت برلين معارض مختلفة ومتنوعة. ومن الأكيد ان «موتش» لم يشهد الاقبال الذي يستحق عام ١٨٩٢، غير ان لوحاته الجديدة أثرت تأثيراً واضحاً في الجيل الجديد في الطليعة الفنية وكانت برلين في ذلك الوقت مفتوحة أمام كل ما هو قادم من البلدان الاسكنندنافية وفيها عرضت مسرحيات ايسن (IBSEN) وسترناندبارغ (STRINDBERG) وقد التقى «موتش» ريشارد دامهال (R. DEHMEL) في برلين، وأيضاً أوتوجوليوس بيرايوم (O. J. BIERBAUM) وسترناندبارغ وجوليوس مايرغراف (J. M. GRAEFE) الذي ألف كتاباً عن «موتش» وكان ظهور المجلة الفنية «DER STURM» عام ١٩١٠ مناسبة لتدعيم الحركة الفنية الجديدة وتعيداً لظهور تطور الحركة التعبيرية. وفي البداية قبول الفنانين الجدد في برلين يتحفظ كبير. بل ان الفنانين القدماء رفضوا أعمالهم واعتبروها مجرد عبث طفولي لا علاقة له بالفن على الإطلاق غير ان هذا لم يحد من حماس الطليعة الجديدة. وفي طرف قليل بدأت تنشط لفرض نفسها. وجاء فنانو (BRÜCKE) ليستقروا في برلين. وفي عام ١٩١٠ عرض كوكوشكا (KOKOSCHKA) في قاعة (CASSIRER). وفي عام ١٩١١ عرض فنانو الحصان الأزرق (DER STURM) (BLAUE REITER) أعمالهم في قاعة (BLAUE REITER) التي أصبحت المكان المفضل الذي يلتقي فيه فنانو الحركة التعبيرية الجديدة.

نقطة أغنية في السنوات العشرين تقول ان برلين واحدة ولن تكون اثنين البتة. المهرج المتنازلي في كارل فالتين» صديق «برخت» عرض بنفسه زهجة تحتوي على هواء برليني. اغان، قصائد، روايات، لوحات، افلام خلدت هذه المدينة، انطلاقاً من «جورج هايم» الى «كريستوفر ايشارد» مروراً «برخت»، «بيكر»، «دوبلن»، «ليونهارد فرانك»، «غوتفريد بن» و«تيخوليسكي»، «ايريك فاينر» و«هانريش مان» وغيرهم كثيرون. قليلة هي المدن التي أثرت في الادب وفي المسرح والسينما مثل برلين خلال السنوات العشرين. لقد كانت حقاً منبعاً لابداعات كثيرة لانزال مؤثرة الى حد هذا الوقت. خلال تلك الفترة، كانت برلين رمز الطليعة الأوروبية، ليس فقط بالنسبة للحركة التعبيرية، وانما ايضا بالنسبة للحركة الدادائية، وللحركة المستقبلية وغيرها. لقد كانت مدينة المسارح والكابريهات، والمكان الذي يلتقي فيه فنانون أوروبا الطليعيون والثوريون.

ان العصر الذهبي لهذه الطليعة يمتد في ما بين ١٩١٠ و١٩٢٠. وقبل ان يلتقوا في الكابريهات الادبية، كان فنانو الطليعة الجديدة يلتقون في المقاهي. ومنذ بداية العشرينات، بدأت برلين الشعبية تفقد دورها الطليعي، وكأنها ظهرت برلين جديدة. برلين الاغنياء. برلين الـ (Kurfürstendamm) والـ (Tautentzenstrasse) والـ (Kantstrasse) وكانت المقاهي التي تعود الطليعيون الجدد الالتقاء فيها هي (Romanisches Cafe) و (Café Grössenwahn) وهي المقهى التي شهدت ظهور العديد من الأعمال الطليعية الجديدة. من هم هؤلاء «الطليعيون الجدد»؟ انهم شعراء بؤساء، يعانون الفاقة وبالكاد يجدون قوت يومهم. ومن خلال روايته الشهيرة Mephisto يتحدث «كلابوس مان» عن تلك الفترة ووصف تأثير الفنانين الالمان المقيمين في برلين على الحياة الادبية والفنية في تلك الفترة. وعاش «برخت» في برلين في تلك السنوات فقيراً لا يملك سوى معطفاً جلدياً وقبعة. ويوسا ما سقط في الشارع بسبب الجوع والارهاق. غير انه في ما بعد لمع في برلين وسطع نجمه كشاعر وكموسيقي وخاصة بعد عرض مسرحيته «طبول الليل» وأوبرا الاربعة مليات في مسرح «Am Schiffbauerdamm» سنة ١٩٢٠.

وبعد ان كانت برلين مدينة السينما والمسرح، أصبحت مشهورة بكابريهاتها التي أصبح الناس يهافتون عليها بأعداد كبيرة. وشيئاً فشيئاً اكتشفت برلين مجلات العري. غير انها لم

«هولندر» و«بيسكاتور». وظلت الحركة التعبيرية تعيش على حدود عام ١٩٢٨. ولما طلب من «سابوز» (MABUSE) أن يحدد مفهوم التعبيرية قال: ان التعبيرية لعب ساخر. ولكن الحياة هي أيضا لعب ساخر!.

وفي برلين أيضاً، عرفت الحركة التعبيرية أوجها. ولقد جاءت الى برلين في نهايات الحرب كما عاصفة هوجاء أو كما جياذ الرؤيا الأربعة. في فبراير ١٩١٨، قام «هولسنسبك» (HUELSENBECK) بمحاضرة في برلين أعلن فيها عن تأسيس الحركة الدّادائية. ومنذ ١٩١٨ الى عام ١٩٢٠ نظم «نادي دادا» اثني عشر شهرة، وأصدر بيانات عديدة. وفي عام ١٩٢٠، افتتح «المعرض العالمي للحركة الدّادائية» في قاعة «بيرنارد» (BURCHARD). وسرعان ما نعت الدادائيون «بالباشقة». غير ان هذا لم يكن صحيحاً تماماً. وذلك ان الدادائيين، حتى وإن كان البعض منهم متعاطفا مع الثورة البلشفية، فانهم لم يكونوا متحيزين بالمفهوم الايديولوجي للكلمة.

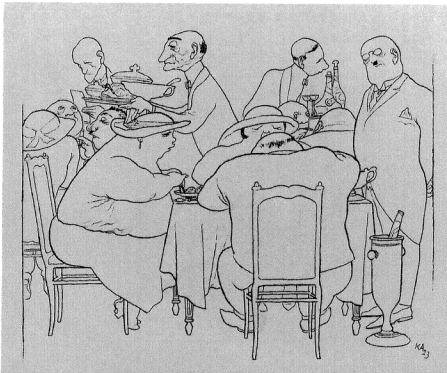
حول قاعة (DER STURM)، وحول المجلة التي تحمل نفس الاسم، التفت الاتجاهات الجديدة والمتغيرة في مجال الرسم: كاندنيسكي، فرانز مارك، شاعل، وأيضاً فنانون الحركة التكعيبية في فرنسا. وقد شهدت معارض الرسامين الجدد اقبالا شديداً ومتحمساً من طرف الجمهور.

كانت برلين خلال العشرينات، تحاول وبسط الهزّات السياسية، وبوسط أجواء الجوع والفاقة، ان تجد في تلك الحياة الصاخبة وفي ووجع الفنون الجديدة مواساة لجراحها والآلام. كانت تريد ان تنسى وإن غرت بعيداً في فترة «كانت فيها الفتاة تشتري بسيجارة وقطعة الخبز بعليلون مارك!». وفي احدى اللافئات المستوحاة من قصيدة «لغالتر ماهرينغ» (W. MEHRING) يمكننا ان نقرأ: «برلين، راقصك هو الموت».

وخلال فترة زمنية قصيرة انتشرت نار الحركة الفنية الجديدة في جميع أنحاء برلين، وجلبت اليها اعداد هائلة من فنانى الجيل الجديد. ويمكن ان نذكر من بينهم: «كورت هيلر» (K.HILLER)، «عقوب فون هوديس» (J. V. HODDIS) الذي أصيب في ما بعد بمرض عقلي وحرقه النازيون. «فرانز بفامفارت» (F.FEMFERT)، «ريدولف ليونارد» (R. LEONARD) وغيرهم، واختلط الشعراء بالتعبيريين، وجميعهم أصبحوا بطلون في المقاهي وفي الكابريبات. وخلال السنوات التي سبقت الحرب، عرض «ماكس راينهارد» (M. REINHARDT) المسرحيات التعبيرية الأولى. وامام خطر الحرب الداهم، لجأ الفنانون الجدد الى المقاهي محاولين تجنب الكوارث التي بدات تلوح في الافق. غير ان ذلك لم يجد نفعا ذلك ان البعض منهم شهد مصرعه في تلك الحرب الطويلة. وبعد انهيار النظام القديم، وانتشار البؤس والفاقة، استقطبت الحركة التعبيرية من اوهامها القديمة، وراحت تعمل من أجل خلق عالم جديد، ومن أجل توحيد الأمل والبأس ضمن مشروع ثوري جديد. وهكذا أصبحت برلين رمزا للأزمة الشديدة التي كانت تمرّق ألمانيا. وإذا ما كانت برلين قبل الحرب عاصمة الحركة التعبيرية بامتياز، فانها أصبحت بعد ذلك مدينة «الفن اليساري» الجديد. وخلال تلك السنوات نشطت الحركة الفنية الجديدة. وتهاافت الناس على المتاحف وعلى قاعات السينما والمسرح لمشاهدة اعمالها في جميع مجالات الفن.

وبسرغم قسوة تلك الفترة التي أعقبت الحرب، فان برلين عاشت مفتوحة لكل اللذات ولكل ما هو ثوري وجديد وطليعي. ولقد كانت تحاول من خلال ذلك ان تنسى ماضي الحرب وألم المجاعة والبؤس.

وفي سنة ١٩٢٢، قرّر «برخت» الاستقرار في برلين. كما استقر فيها أيضاً مخرجون لامعون من أمثال «راينهارد»، و«جسنر»



برلين أيام الحرب

كارين بليكسن

من مشاهدة أي شيء. وليس في البرامج مسرحيات حديثة. هناك تهاقت من جانب المخرجين على الأعمال الكلاسيكية. وهناك اجانب كثيرون في برلين يشككون من هذا الوضع، وهم بفارغ صبر ينتظرون الفن المسرحي الجديد الذي سوف تبتكره ارادة الرايخ الثالث. ولكن من يدري ان هذا الشعب الذي يقدر واجباته يذهب الى المسارح دونما وعي لكي يغفل لساعات من اولئك الذين يريدونه ان يظل في الطريق المستقيم.

ولقد سمعت كثيرين في برلين يتحدثون عن الفن الشعبي. وهم يقولون ان فن الرايخ الثالث لا تخلقه النخبة الثقافية وانما الجماهير بأسرها. لكن ماذا ترى تقول الجماهير اذا ما دعوا لتكلم وتعبعن رأيها؟ ولقد تمكنت من مشاهدة العديد من الاعمال التي قيل في انها تنسب الى الفن الشعبي. وانما لم اشاهد ابدا معارض رسم واعتقد انها لا تقام اطلاقا لافي برلين ولا في غيرها من المدن. غير اني شاهدت بعض الاعمال التصويرية، وايضا سقوا مزينة وبنيات رسمية مزخرفة. وكل ذلك مستوحى من روح الرايخ الثالث. اشخاص عرا يبدلون شرفاء اكثر من اللازم. فتى عار، يد على المحررات والاخرى على السيف، وعيناه زرقاوان كبيرتان. والى جانبه فتاة عارية وضخمة الجسد، وصافية الوجه تتحول في الصورة الاخرى الى أم سعيدة، محترمة من طرف الجميع، ومنها يتدفق الحليب والعمل. انها الصورة المعلقة في جميع الاماكن والتي تجسد البطولة والمجد كما يراها الرايخ الثالث. غير ان الشعب لا يرى نفسه كذلك. واعتقد جازمة انه يجرع خجلا حين يستحث على ان يرى نفسه كذلك. [...]

ولكي اطلع على مياضك الشعب الالمانى، ذهبت صحبة الدكتور وباعال، الى (CAROWS LICHTBÜHNE) التي هي قاعة عادية تقدم فيها عروض مختلفة ومتنوعة. وفيها يشرب الناس الخمر والبيرة. وكانت حقا سهرة ممتعة. «كاراو» الذي هو يدون شك، صاحب القاعة والذي حسب ما اعلمني البعض، قيد الى السجن مرتين أو ثلاث، بسبب هزله المزاحيانا، هو الذي كتب المسرحية وهو الذي يمثل الدور الرئيسي فيها. وكانت مليئة بالهزل وبالسخرية عكس تلك المسرحيات التي يؤلفها بعض اليسورجوازيون الثقلاء. وكان الجمهور سعيدا ذلك ان الممثلين عبروا عن مرارة [...]

كما استمعت ايضا الى السمفونية الخامسة لبيتهوفن. مسؤول وزارة الدعاية الذي كان يرافقي قال لي: «ان السمفونية

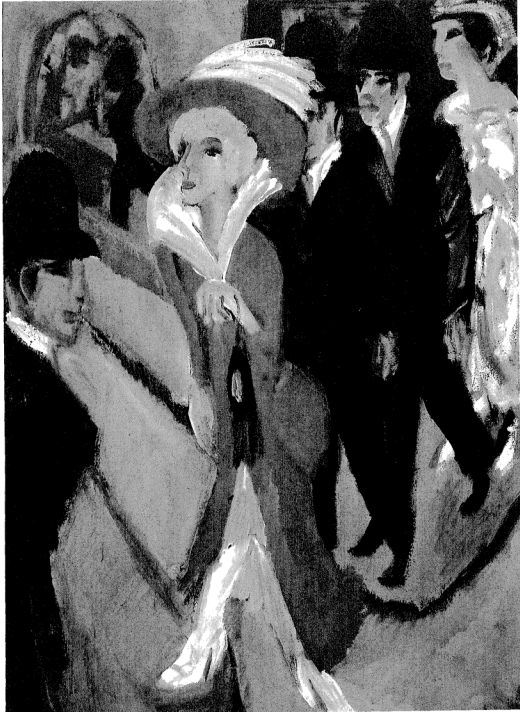
جئت الى برلين في فترة فقدت فيها لمعاني ورونيها تماما مثلما يفقد الطائر زهو في موسم التسول. لم تكن هناك موسيقى في الشوارع. ولا اعلام ترفرف في الريح لاصوت اقدام بالآلاف. وكل مايمكن ان يبهرك غائبا تماما. لقد حدثني اصدقائي الذين حضروا الالعب الاولمبية منذ أربع سنوات عن عاصفة الانتصار التي كانت ينفخها الرايخ الثالث بقوة وعنف. غير وانا في برلين لم اعثر على شيء من هذا القبيل. لقد شعرت اني في مدينة كتيبة. الشوارع قلدة بطريقة لا يمكن وصفها. لقد ازلت الشاحنات الثلج قليلا من الشوارع، غير انها تركتها مكذبة وانطلقت لتأدية مهام أخرى اكثر أهمية. الناس يسبرون بحذر مرتدين ثياب السنة الماضية. لم أرتياها رثة، كما اني لم أرتياها ابنة. في مدينة كبيرة، اكثر مما في أي مكان آخر، يكون الغريجنج هو الضروي، ودوننا نخبة متفقة تبدو المدينة رتيبة كبا اليأس نفسه. وعندما كنت في جو فندق «ادلون» بأثائه القور، فكرت في ان الاشخاص الوحيديين الجديرين بذلك المكان هم البواب والصرافات. وكان الفندق بني لشيء آخر غير لتلبية رغبات الناس. كل شيء كان يؤكد ان برلين تعيش اياما عصيبة وقاسية.

غير انه بعد مضي ايام، بدأ المحيط في التغير بطريقة غير محسوسة. ذلك ان الاعمال الكبرى تتواصل، وضربات المطارق تقترع فوق المداخل العمالية وعلى الارض حيث تنبى شوارع عريضة. هذا المجتمع ليس مسلوبا وانما هو مجتمع بوعي تام عن شيء محدد، فاما مثل رجل يشعر أنه عليه تادية عمل ما، وفي الحال ينزع سترته، ويشمر عن ساعديه، ويشرع حالا في القيام بذلك. الازادة، والرغبة العامة في تادية الواجب تسيطران على برلين التي ملأها الشتاء ذذارة وحزنا. ان منع الجولان، اذا ما تعرض اليه من قبل، يزعج النفس كثيرا في مساات آذار. اننا نحن نفس مشاعسر رجل يدرك انه بغرق وانه لا سبيل الى الخلاص. غير انه مع مرور الوقت، تعود بسرعة على التنقل في العتمة. لكن الفرع يظل يرافقتنا رغم ذلك. ليست العتمة هي التي تضغط عليك، وانما الاحساس بان هناك حولك، وفي كل النواحي، أربعة ملايين من البشر، قزروا ان يخفوا وان يظلوا هادئين وصامتين في العتمة.

وفي برلين كانت المسارح تغص بالناس برغم منع الجولان وقذارة أشهر الشتاء. ومن الصعب الحصول على تذكرة في أي مسرح من المسارح. ولولا مساعدة وزارة الدعاية لما كنت تمكنت

التي عزفتها بطريقة رائعة «الأوبرا الكبيرة». وقد عدت الى الفندق تحت عاصفة ثلجية عنيفة. غير اني كنت سعيدة الى درجة اني اردت ان امسح تلك القطعة شكلاً مستوحى من احدى روايات الكاتبة السويدية سلمى لاجرويف: «أه انت الذي أحب كم أنت علمتي ان أطير بجناحي في الساعات العالية!». غير انه في تلك الليلة، لم تمنحني السمفونية الخامسة اجنحة. وبعد مضي شهر على اقامتي في ظل الرايخ الثالث، شعرت انها تزن بتلك المناقشات التي دارت بيني وبين بعض الرسميين حول قوة الازداع. ولقد بدت في مجسدة للانسان الاعلى اكثر مما هي إلهية!.

الخامسة هي التعبير الحقيقي والرائع للروح الالمانية». وهكذا استمعت الى السمفونية بطريقة تختلف عن المرات السابقة. «هكذا يضرب الله على الباب» كان يقول بيتهوفن. ونحن لا نعرف اذا ما كان ذلك وعداً ام وعيداً. وكان «برليوز» (BERLIOZ) يسمي الوتيرة الرابعة «وتيرة السفينة». غير ان شومان (SCHUMANN) الذي استمع وهو طفل الى السمفونية الخامسة قال قبل نهايتها: ان هذا يجيفني. والنهاية تنتفخ، وتتدفق ثرية وعنيفة، وتصل الانفعال الى اقصاه: «النصر، النصر!» يصرخ في النهاية. وقبل ذلك ليلال كنت استمعت الى «القيثارة الساحرة»



ارنست لوندنيك
كيرستن:
شارع المرأة الحمراء

رواية الفريد دوبلن : برلين : ساحة الاسكندر جحيم برلين الثلاثينات

جون فرانسوا فوجيل

«شيكاجو» أوروبا. وبما أنها أصبحت عاصمة للألمان بأسرها، فقد كانت على صلة يومية باهم العواصم الأوروبية: باريس وبيودايست، وموسكو، ولندن. يقول «الفريد دوبلن»: «إن وصف مدينة كهذه، يبدو مشروعاً صعب التحقيق. ولكن أتوصل إلى النفاذ إلى جزء من روحها، على أن اتصفح وثائق الإحصائيات، وأن أحصى أعداد المواليد والأموات، وأن أدرس حالة المعلم، وأن انتبه إلى افلاس الأشخاص والمؤسسات، وأن اتعرف على أوضاع العاطلين عن العمل، وأن أطلع على مستشفيات الأمراض النفسية، وعلى المساجىء الليلية، وعلى حدائق الأطفال...» غير أن كل هذه الصعوبات لم تنفي «دوبلن» عن إنهاء روايته التي أثارت حال ظهورها إعجاباً شديداً لدى النقاد والقراء على حد السواء. ولا يمكن البتة الاستناد إلى اجواء أزمة ١٩٢٩ الاقتصادية وحدها لتفسير نجاح هذه الرواية، بل لأن «دوبلن» تمكن كخلاق كبير من أن ينفذ إلى اعماق المدينة وأن يتقل لنا كوايسها وألمها وخاوفها بأسلوب ساخر وعنيف في نفس الوقت. وقد كتب «دوبلن» روايته دون بطل إيجابي، ودون تمهيد، ولكن بأسلوب حديث مكثه من أن يكون قريباً من سيلين ومن جويس في نفس الوقت.

لقد صوّرت رواية «برلين: ساحة الاسكندر» جحيم برلين بعد الحرب العالمية الأولى وقبل استيلاء هتلر على السلطة. ولذا فإنها جاءت قائمة، ومفعمة باليأس والالم: «فالسفر فرح. إن الحرب تنتظرنا». وفيها يلتقي المشوهون والبغايا بالانثرا والحونة. وكل إبطاها يعكسون أوضاع أشخاص حقيقيين عاشوا جحيم برلين خلال تلك الفترة: «راينبولد» الذي يلبس أحسن مايملك من الثياب ليقابل النساء، و«بلومر» الأكثر سمنة من الخنزير الأكثر سمنة، و«فرانسوا بياركوف» الذي يتردد في وضع يده الاصطناعية قبل الخروج. هؤلاء كانوا إبطال جحيم برلين خلال الثلاثينات.

في يوم ١٠ أيار ١٩٣٣، قام كاتب فاشل يدعى «غوبلس» (GOEBBLES) بحرق أعمال أربع وعشرين كاتباً وشاعراً ألمانيا أمام جامعة برلين من بينها أعمال «الفريد دوبلن» (A. DÖBLIN) الذي كان قد سارع بالهروب إلى باريس وذلك عقب حرق «الرايشتاغ».

وقبل أن يجتاح الاعصار النازي ألمانيا بقليل، كان «الفريد دوبلن» قد نشر رافعته الشهيرة: «برلين: ساحة الاسكندر» وذلك عام ١٩٢٩ أي عند انفجار الأزمة الاقتصادية الكبرى التي اجتاحت العالم الرسالي في ذلك الحين.

يقول الناقد «فرايم فريش» معقلاً في آخرها عام ١٩٢٩ على ظهور هذه الرواية انه لا رواية عن برلين مثلها بعد «فونتانا» (FONTANE) (كاتب الماني عاش في الفترة الثانية من القرن التاسع عشر وكتب عدة روايات عن برلين وأجواها - المترجم). ويواصل هذا الناقد قائلاً أن رواية دوبلن ليست ملحمة برلين وحدها وإنما هي ملحمة البؤساء، والمهاجرين، والمشوهين. وقبل «دوبلن» كان تيودور فونتانا، قد جعل برلين في رواياته حاضرة باجواها، وبشارعها، وبمطاعمها ومقاهيها. وفي الفترة التي عاش فيها هذا الكاتب، أي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كانت برلين لاتزال عاصمة اقليمية، ولم تكن قد أصبحت بعد عاصمة للامبراطورية البروسية، وبعد «تيودور فونتانا» لم تختفي برلين من الاعمال الادبية والفنية. فلقد كانت حاضرة بصفة خاصة في اعمال الفنانين التعبيريين. غير أن الرواية الوحيدة التي تحدثت عن برلين كمتربول حديث هي رائعة «الفريد دوبلن»: برلين ساحة الاسكندر.

ماذا كانت هذه المدينة في مطلع الثلاثينات؟ لقد كانت مركزاً ضخماً للمواصلات (٢٠ محطة كبرى و ١٠٠ صغرى) وكان عدد سكانها قد بلغ أربعة ملايين خلال أربعة عشر عاماً فقط! وكان فيها ثلاثون ألف معمل، وثلاثة الاف فرع بنكي، وثلاث مائة ورشة! ومثلما توقع «مارك توين» (M.TWAIN)، فإن برلين كانت قد أصبحت منذ نهاية القرن التاسع عشر







عائلة مشردة

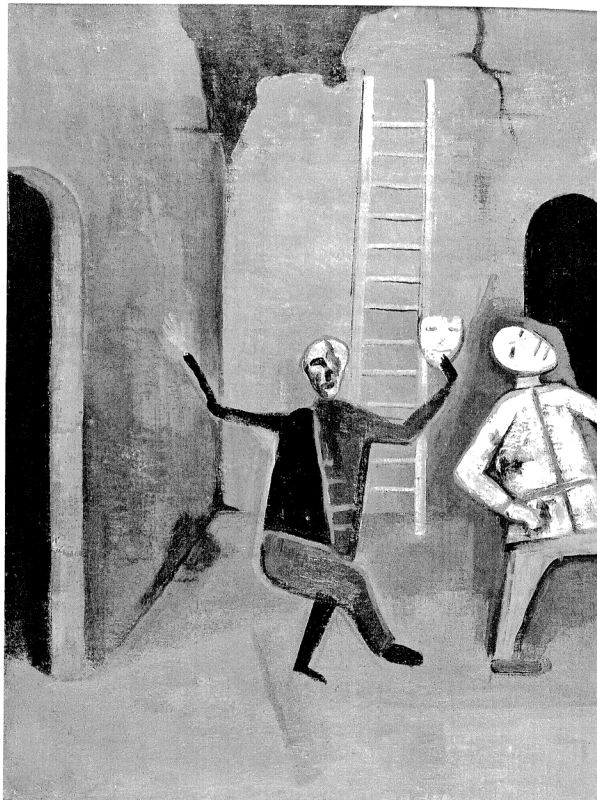


شعار النازية على الأرض في نهاية الحرب
العالمية الثانية. برلين، ماي، ١٩٤٥

يقول امام باب براندنبورغ. برلين ١٩٤٧



كارل هوفر: اعادة بناء العمارات



برلين عاصمة العالم

جاك تبول

ذاكرة مثل تلك الشخصيات التي في أعظامهم.

في إحدى افلامه يسمّى سيبرباراغ (SYBERBERG) الدمية التي تجسّد شخصية هيتلر قائلا: «لقد حطمت برلين عليك ان تحب منازل دون ارواح، بعين مخروقة وبلا دموع، ومسدّن لم يعد بإمكانها ان تفكر، وحياة لم تعد قادرة على التحرك. لقد سرقت منا غروب الشمس. وكل ما تبقى شوهته ونستسه: الشرف، الحياة الرقيقة، الوفاء، حب العمل، السينما، الوطن - الوطن! الكبرياء والعقيدة! شكراً لك على كل ما فعلت!».

برلين جرح لا يندمل. وثمة مدن أخرى ثوت وتتعفن غير انها تسعى بكل جهدها لاختفاء ذلك. وخلال تجوالي عبر شوارع برلين كان يلاحقني بعنف شديد كل من الموت والحقد اللذين نشرتهما أوروبا في العالم بأسره منذ أمم طويل، ووجهتهما ضد نفسها وضدنا نحن أيضاً.

وعقب مضي شهور على زيارتي الأولى الى برلين، كانت أول ذكرى سجلتها في يومياتي، هي الصورة الفسحة والجميلة لبحيرة «فانسي» تحت شمس يوليو. وهي صورة تحمس الإنسان الى قضاء عطلة الصيف في برلين. صورة زرقاء وصفاء وملئمة بمئات الاشعة البيضاء. غير أن هناك تفاصيل أخرى لا يجب ان أنساها: على الضفة الأخرى من البحيرة، ثمة جنود بريطانيون يضعون في الساء آلة حربية ضخمة وسوداء. وبعيدا من هناك تخرج من الساء تلك اللافتة المعتادة التي تنبه الناس الى ان هناك من يغادر برلين الغربية. انها السعادة المهدة دائما بأشارة المأساة.

إن نشوة العشرينيات ومرجعها اختفاء من هذه العاصمة المحاطة بالبحيرات والغابات والحدائق. ثمة آثار أخرى بقيت: حين تتجسّول على طول (KURFÜRSTENDAMM) نكتشف بين واجهات المخازن الأشد أنيقة، الواجهة القديمة لعارة منارة وعلى جدرانها آثار رصاص. أمّا بأور النوافذ فحطّم تماماً. وعلى باب الدخول سمرت ألواح خشبية. وهناك في المدينة عارات كثيرة شبيهة بجده. عارات مهلمة ومنارة تذكر بأهوال الحرب والغارات الجوية. عارات صامتة وكثيرة تنضج منها كوايس أيام الفزع [...] .

يتصب الحافط بشعا فاصلا بين جزئي المدينة. ينظر الامان والبرلينيون الى بعضهم بعضا لدة طويلة دون كلمة ولقد آقيمت منصات هنا وهناك لكي يتمكنوا من ان ينظروا جيدا الى بعضهم

منذ خمس سنوات، زرت برلين لأول مرة. ومنذ ذلك الوقت وأنا أعود اليها دائما. في البداية كنت أذهب اليها بنفس الرغبة التي اذهب بها الى المدن الأوروبية الكبيرة بحثا عن الاختلاف بين الاماكن وبين العادات وبين العقلات عمالاً أن أجابه الصورة التي في رأسي بصور وأصوات صاخبة لمدينة مذهلة ومعقدة ورمادية وشرسة في أن واحد: برلين السنوات العشرين، برلين الحركة التعبيرية في الرسم والفن، والغليان الثقافي والسياسي، برلين دولين وراثته الشهيرة «برلين» ساحة الاسكندر. بعد الحدود، سارت سيارتي في طريق بالنس باتجاه خط حدودي آخر. وبعد ذلك دخلت المدينة التي شغلت خيالي ذهني لفترة طويلة. برلين الكوزموبوليتية والألمعة اختفت أو تكاد. انها اليوم مدينة أخرى يسكنها اجانب يرتدون ازياء عسكرية مختلفة. لقد صدمتني برلين، برلين المدينة الجرح هي اليوم عاصمة للوجع والألم. وكل شيء فيها يدل على ان الجرح ما يزال مفتوحا وانه لن يندمل البتة. برلين، عاصمة هذا العالم الكئييب ذلك انها تبرز من خلال انقاضها، وجدارها القبيح، وجراحها الكثيرة ما تحمص مدن أخرى على اخفائه. ان برلين تجسد أكثر من غيرها، التمزق، والحقد، واكاذيب الايديولوجيات، ويجنون تارخنا المعاصر. انها عاصمة لهذا العالم لانها تعبر اروع تعبير عن أرباب القوى التي تجابه بعضها بعضا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. أحيانا يتأنيبني إحساس بان العواصم الأوروبية مدن سوداء. سوداء من الارصفة ومن واجهات العيارات. انها مدن تختنق تحت تاريخها الطويل، بنيت فوق مآسي وجثث كثيرة. وفي كل واحدة منها حدثت محاولات للتجميل، والاصلاح، والترميم. وفي كل واحدة منها حاول الناس ان يكونوا سعاداء بقدر الامكان وان يعيشوا الوهم. غير ان الموت كان يعود دائما. هدد مع تنفس الاحجار الاسود. أمّا في برلين فليس هناك أي وهم: ان الشار الام والحرب لانتزال واضحة. كما لا تزال واضحة أيضا الكوارث التي عرفتھا الانسانية خلال هذا القرن [...] . برلين مدينة التناقضات الكبيرة. انها المدينة التي تعكس أكثر من غيرها حالتنا كأوروبيين مضطربين وحياري.

والبرلينيون مجربون على ان تكون لهم ذاكرة قصيرة ذلك ان المدينة تفرض عليهم طول الوقت ان ينظروا الى اثار النازية. ان ذاكرتهم تقف عند هذا الحد ولا تستطيع ان توغل في الماضي البعيد وبرلين تكشف لنا بوضوح تام لماذا كتاب المانيا وسينمايوها هم بلا

(KREUZBERG). على جدار مقبرة هذا الحي، وبالقرب من الباب الرئيسي كتب أحدهم: فاليحيا الموت (VIVA LA MUERTA). على الرصيف يلعب أطفال أتراك [...] .

وككاتب أنا جد حساس للأشياء التي أشاهدها وللمشاعر التي تولدها في نفسي. وأذكر أني ذات مرة فاجأت فتاة وشاباً يارسان الجنس وأقفين ومستندين إلى الجدار. كان الشاب يستند إلى الجدار وكانت الفتاة تستند إليه مفتوحة الساقين. وغير بعيد عنها، قرأت على الجدار الأبيض (THIS WALL IS AN ILLUSION) (هذا الجدار وهم). وعلى بعد امتار من هناك جنديان، واحد إنكليزي والآخر أمريكي ينظران إلى الناحية الأخرى بواسطة المنظار. ثم أشعلا سيجارة بهدوء كما لو أنها كانت يتأملان البحر. كان كل شيء هادئاً في ذلك المكان المنعزل. وكل شيء كان مهذباً أيضاً. وهذا المشهد من مشاهد نهاية الظهيرة راح يفرق شيئاً فشيئاً في الصمت الخافت لكابوس لم يكن باستطاعتي إدراك نهايته. أوروبياً حائراً ومشتت الذهن اكتشفت برلين. وأوروبا حائراً ومشتت الذهن أيضاً مشيت في شوارعها. أنها عاصمة مهزومة، أعيد بناؤها، واحتلت وقسمت وهي تقول بعنف أنها اصابت روحها وإن التهديد لم يخفني البتة وهي تبرز بوضوح ما تحاول مدن أخرى دفته و إخفاءه.

بعضاً. ويخيل لنا أنهم ينتظرون. أنهم ينتظرون. ونظراتهم تكون فضاء تتلاشى فيه الذاكرة، ويضيع فيه الوعي، وتتمزق فيه الهوية. ألمانيا مقسمة، وشعب منفصل عن نفسه، وبرلين مجزأة. وفي برلين الغربية ثمة انفصامات أخرى بين السكان، واختلافات عميقة بين الأفراد.

بين (Brandenburger Tor) و (Reichstagsgebäude) الشهير يتصبغ الحائط مدهونا باللون الأبيض. وعلى طوله تنبت حشائش وحشيشة وطفيلية. كما تنبت شجيرات فوق انقاض السفارات القديمة، وترتعش اشجار مجنونة في الفضاءات الفارغة الواقعة حول (Philharmonie) والمتحف الوطني. وبين هذين الاثنين الهامين اللذين لم تمسهما الحرب بسوء، هناك كنيسة صغيرة تقدم فيها أحياناً حفلات موسيقية. ذهبت إليها مرة. وفيها استمعت إلى «موتزارت». كانت هناك موسيقى تحت جناح تلك الكنيسة المنعزلة، وبحول ذلك الفضاء الذي أصبح فارغاً ومتوحشا. وبعيداً الحائط ثم أضواء برلين الشرقية. ليس هناك لحظة من لحظات السعادة لأبسطها الموت أو الانفصال. هكذا عشت في برلين. ليس هناك مكان واحد لاتفاجئك فيه إشارة من اشعارات أيام الربيع التي تحدث أحياناً موجات من العنف والغضب خاصة في أوساط المراهقين والشباب في حي كرويزبارغ



دشيتال ماركت: أحد أسواق برلين.

ذات يوم أحد في برلين الشرقية

ميشال دكوست

عام ١٩٣٨ وقصف عام ١٩٤٤ . وقد أبقي على هذه الحالة تذكيراً بالأم الشعب اليهودي». على بعد خطوتين، عمارات تبدو كلوا انها قصفت لتسوها. وحدها الشجيرات التي نبتت في التجاويف تؤكد جرماً قديماً لما يندمل بعد.

قريباً من «ALEXANDERPLATZ» نلتقي اخيراً البرلينيون ثلاثة أطفال بشرتات رياضية يرتقالية نسبة الى الشيبة الشيوعية يجرون حاملين رايات. فتاة صغيرة تحرك درجيتها على البلاط. عائلة تسوق طويلاً أمام مغازة: بطاطا، كرنب، بصل، قصب السكر، كرفس، وواجهة قرية فقيرة من قرى السهول الشمالية. . . على بعد خمسين متراً من المغازة.

ساحة الاسكندر: فولاذ مصقول، بلور، بلاطات من المرمر والاسمنت، مكتبات فنية، واخرى للتاريخ والدعاية، فنادق كبيرة، مقاهي مستقيمة وبلا ارفصة الا في مائدر، روائع المقائق، والدجاج المزوج بالفلفل، وحساء الحمص. . . والسواح بطبيعة الحال. سواح من الصين واليابان وروسيا والمانيا الغربية. شعور بالقرف. أين هم السكان؟ فارغة الممرات بين العمارات الحديثة. فارغة المقاهي الصغيرة في الساحة الكبيرة. فارغة المقاعد والحدائق الصغيرة في وسط المدينة. وعلى بساط البارات «الفخمة» يعطونك فطائر كبيرة محمرة بلحم الدجاج - وياله من لحم عجيب! - ومعها كاس كوكاكولا بدون قفاز. ولا ابتسامة. والكلام يتم بصوت منخفض. والطعام بارد ويلا طعم.

علينا عندئذ ان نقفز في أول قطار وان نجتاز غرب المدينة، وان نترك ورائنا أحشاء الأسمنت والاجر، ودخان المناطق الصناعية، وان نأمل اشجار التنوب الأولى، وغابات البتول، وان ننتظر محطتين أو أكثر لكي نركب تراماً قديماً، ذا مقاعد مرفقة باتجاه «MOGELSEE».

البرلينيون هناك، في الحانات المتوزعة على ضفاف البحيرة يشربون البيرة بنهم، وينظرون الى المراكب الشراعية، وإلى الجسادين، وإلى المراكب البخارية التي تقوم بجولات حول البحيرة، باعثة الضجج في مجموعات البط والتم. هم أيضاً حول قطع شطرنج ضخمة أو هم يجرون وراء أطفال يتسلفون حيوانات معادن في الحديقة. وعند العودة تراهم متعلقين أمام واجهات مغازات السلع الالكترونية كما في أيام أعياد المسيح.

ما يدهش في البداية هو صمت الشوارع، خاصة في الساعة الحادية عشر من يوم الأحد، وعندما تكون الشمس حارة، وكل واحد يعلم انها عطلة نهاية الأسبوع الأخيرة في الصيف قبل الخريف الحقي والعابر، والشتاء القاسي والبارد. السيارات القليلة تتحرك صامتة في الشوارع. وهي ليست مجرمة على ان تستعمل المنبه وان تفرمل لأن المارة قليلون. وعندئذ تولد في انفسنا الرغبة في ان نلتصم أي روح تعيش بعيداً عن الشوارع الخالية، وان ندخل تحت الاروقة، وإلى الحدائق، والساحات الخلفية. . . ثم فجأة، نكتشف أننا بحثنا دوننا جدوى في الناحية الأخرى، وهكذا نعود الى بطن برلين الشرقية على بعد خطوتين من السهم الأصفر ومن البلور اللامع لـ «ALEXANDERPLATZ» علينا ان نتمهل، وان نسير في الشوارع ببطء، وأن نصيد مثل القطط دون أن نظهر بأي حال من الاحوال اننا نبحث عن شيء ما. الخي اليهودي القديم حول «ORANIENBURGSTRASSE» يبدو كما لو انه خرج لتوه من دخان الحرب: منازل لا تزال قائمة غير انها مسودة، جذران مثقوبة بالرصاص، ملاك صغير ورووس نساء مقطوعة أو دونها أنوف، جراح أشد عمقاً خلفها شظايا القنابل. غير ان كل شيء منتصب في مكانه. فزارعة وحمل الاروقة المقوسة على الطريقة القوطية او المثلثة والمقامة منذ نهاية القرن الماضي تجعلنا نتخيل دخول عربات الخيل الفاخرة، حاملة حرقاءها الى مدارج المرمر ذات القوائيس المصنوعة من الخشب النادر أو من الحديد، والتي لا تزال ثرياتنا تعرض بلورها الجميل.

غير ان الالقي ينتهي عند هذا الحد، اي عندما نجد أنفسنا أمام قاعة التأسستين المكتوبة باليد على ورقة مصفرة، وأمام صناديق الزبالة الملقاة في الساحة إلى جانب ركام من الفحم، وأمام الذاكرة المعلقة على باب الدخول: «الاسياخ تجمع كل أيام الاثنين، الكلاب ممنوعة، لاتنسوا الاضواء، لايمكن لأي اجنبي أن يدخل إلى الساحة. . . النوافذ مغلقة. نوافذ الساحة الداخلية أيضاً. لاصوت ترازيسيتور على الاطلاق. لاصوت يرتفع. حتى صخب العائلات العادي في صباحات الاحد معدوم تماماً. لاصوت مطبخ أو ما يسل. حي غريب، فيه التاريخ اكثر حياة من الحياة نفسها. على جدار معبد يهودي، اسود الجدران، لافتة من النحاس مكتوب عليها: «هذا المعبد حرق ليرة الصفاء



ثلاثة أحلام برلينية

كلاوس شليسنجر (كاتب من ألمانيا الشرقية)

-1-

حولي : الان انا أبحت عن صديقي . وحل الانتظار محل الخوف .
لم يكن باستطاعتي العزوف على البيت الذي يسكنه صديقي منذ
هروبه الى المنطقة الغربية . شخص ما كنت رأيت ذات مرة جرتني
الى سقيفة وهمس في أذني ناصحاً أباي بعدم مواصلة البحث لاني
لن اعثر على صديقي وحتى على أمه وطلبت منه ان يوضح لي ما
يقصد بنصيحته تلك فأجابني بصوت معسول : «لانه يعمل في
مأخوذاً» .

ولاني لم اكن اتصور البتة شيئاً كهذا ، فاني اندهشت ورحت
العن الراسيالية . وعندئذ تعرفت على الرجل الذي قدم لي
نصيحته الثمينة وتذكرت ان كان سكرتيراً للحزب في العمل الذي
كنت اشتغل فيه . هل أواصل التمازج معه؟ غير أن الرجل كان قد
اختفى دون ان ينطق بكلمة .

ركبت الميترو متوجها الى عملي . كنت اتصور انه سيمر
بالمحطات التي تعود الموردها . غير انه وهويقترب من المحطة
الآخيرة ، انتهت الى انه سيعبر الى الناحية الغربية تماماً مثلما كان
يفعل في الماضي . ووصل الميترو الى المحطة الحدودية . وصعد
مراقبو التذاكر وسروا بين المقاعد . جلست وتكلمت مدعوراً ،
ورحت انظر من خلال بلور العربة القذروكان الأمر لايعنيني . غير
ان قلبي كان يدق بعنف الى درجة اني تصورت ان كل الذين كانوا
حولي سماعوا دقاته . اذا ما طلب مني مراقب ما اوراقني وتذكرتي ،
فليس امامي سوى حل واحد وهو ان أهض وأتبعه . ليس لدي أية
وثيقة تخول لي اجتياز الحدود . لست أدري العقاب الذي ينتظرني ،
غير اني أعلم أنه سيضيع حياتي بأكملها . وفي لحظة ما ، تحرك
الميترو . خف المي قليلا ، وبدأت ادخل فضاء يملأه ضوء بارد
وقوى . نزلت في محطة حديقة الحيوانات . لم انتبه الى اي شيء من



ساحة الاسكندر في برلين
الشرقية وتبدو فيها
ساعة العالم الشهيرة

-٣-

ذات صباح، صعدت الى مخزن بيتنا ولما فتحت كوة النافذة التي تفتح على السقف، وجدت مدينة فوق المدينة. وظهر أناس من وراء الحواجز وراحو يتقدمون مني مائنين الى أيديهم. وثمة رجل عجوز ضخم الجثة اخذني من كتفي وساربي في طرقات شبيهة بالازقة.

نحن نعيش هنا، قال، وأشار الى أناس يلبسون ثيابا بائسة، غير أنهم كانوا يبدون سعداء. وكانوا يشيرون اليّ داعيني الى شيء ما.

اقتربت من حافة السقف لكي أنظر الى الارض غيران الرجل الذي كان يرافقني جذبني الى الخلف وهو يصرخ: هل تريد ان يكتشفوك؟

صديقي مارتن كان مستنداً الى المدخنة. ضربت يدي فوق رأسي وصرخت: ماذا تفعل هنا؟ كنت اعتقد انك في الناحية الاخرى! حرك رأسه وقال مبتسماً: كلهم يعتقدون ذلك!

احمر وجهي لما شعرت انه لا يثق بي واني بالنسبة اليه مثل الآخرين تماماً. قلت: لو كنت اعرف لكنك ذهبت معك! حرك رأسه من جديد وقال: هنا لا يأتي الا الذين لم يعد بإمكانهم تحمل الحياة هناك في الاسفل. والى حد الان انت لم تصل الى مثل هذا الوضع.

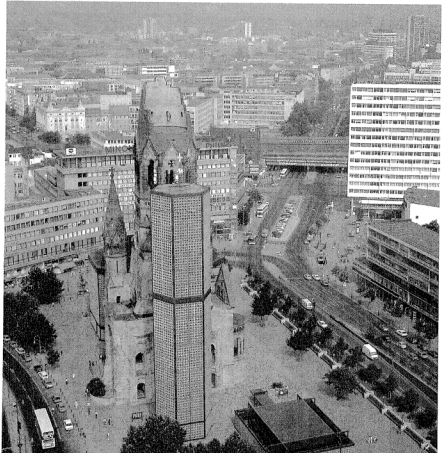
وادركت عندئذ انه عليّ ان اصل حالاً الى مثل ذلك الوضع.

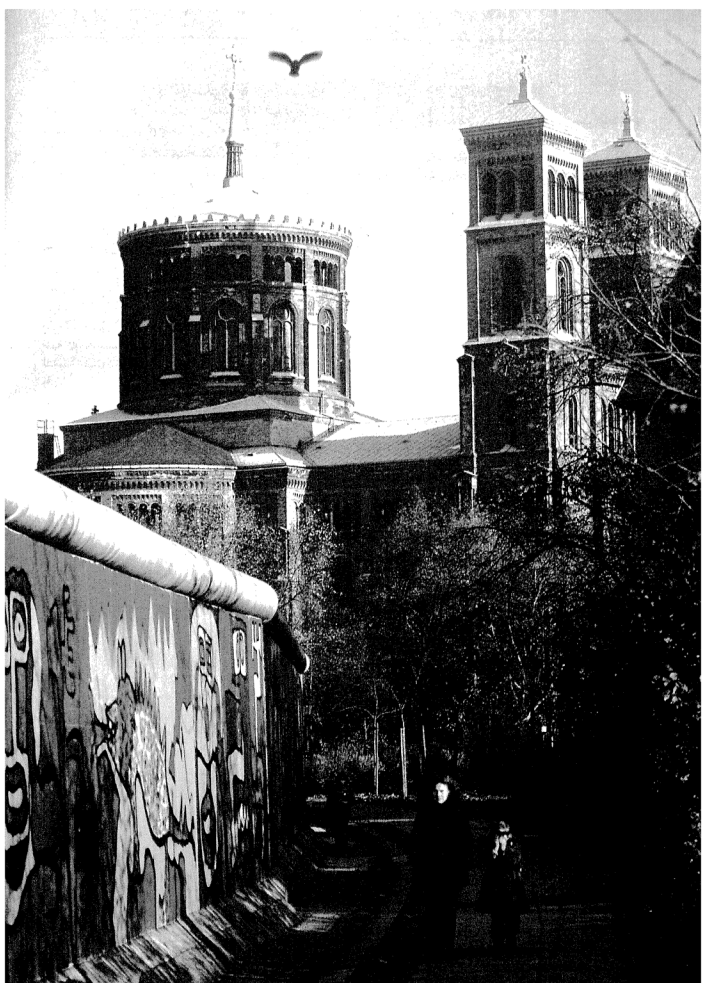
واشتد خوفي. لست أدري كيف أعود لاني لا أملك عملة المنطقة الغربية. وإذا ما عثرت على صديقي فانه سيدفع لي ثمن تذكرة الایاب، غير اني كنت يائسا من العثور عليه. وداهمني ذلك الشعور القديم يوم ضيعتني أمي في إحدى المغازات الكبيرة.

-٣-

كنت في الطابق الثاني لمنزل ما وكنت أنظر من خلال النافذة الى الشارع الذي ولدت فيه. وبعيداً هناك شاهدت اللون الأزرق الشاحب لمحطة من محطات شال. كان الصمت عميقاً. ويبدو مهبطاً أكثر مما هو مطمئن. وبالفعل، بعد وقت قصير، سمعت طائرات تملأ فوق الشارع الذي ولدت فيه. وبالرغم من سرعتها الخارقة ومن انها كانت تطير على مرتفع منخفض للغاية حتى انه خيل الى انها تلامس الشرفات الرمادية للطوابق العليا فإنه كان باستطاعتي ان أعلها. كانت خس طائرات. وكانت شبيهة بطيور الحطاف. وفجأة تداخلت الطائرات الخمسة وانفجرت بين العمارات. وها الشارع الذي فيه ولدت يمتدق. ومذعورا، وضعت يدي في جيوب سترتي وعندئذ انتهت الى أني نسيت سجائري في المكتب. نظرت الى المنزل الذي ولدت فيه وهو ينهار وأدركت أن الحرب بدأت من جديد.

كنيسة برلين الغربية
وجادة والكودام.







شاك بوانت شارلي: نقطة عبور
بين المدينتين - برلين الشرقية
وبرلين الغربية.



رسم على جدار برلين.

اسمها يرثى كما الجرس

فلاديمير نابوكوف

موعد الأكل) ويندفع القطار تحت جسر ضخم تزخره قطع صدفية. وبعيدا: وسط ضباب سمحي، بطاقة برديّة أخرى تدور حول دعائمها مزينة برجاً شفقياً وسط خلفيّة سوداء. ثم تختفي فجأة، وسط مغارة كبيرة يتدفق فيها النورين دمي مذهبة، ومرايا صافية ومبسط بلوويّة، كان «فرانز» بروح ويحيى مرديا جاكنته، وينطلقنا مضلّعا، وحذاء أبيض، وبإشارة ودية من يده كان يوجه الحرفاء الى الرفوف التي يرغبون في رؤيتها.

برلين! في الاسم نفسه العاصمة التي لا تزال مجهولة لديه، في نقل وهدير الجزء الأول من الكلمة، وفي خفة الجزء الثاني منها، كان هناك شيء ما يشير غيخته تماماً مثلها هو الامر بالنسبة للاسماء الرومانطيقية للخمور الجيدة والنساء الفاسدات. كان يجيل اليه ان القطار السريع يحجل السير الان في الجادة الشهيرة، المحاطة، كما يتصور بأشجار زيزفون ضخمة يعود الفضل في وفرة اوراقها الى اسم الجادة الرنان. وتحت اشجار الزيزفون كانت تتحرك جموع متلاثة (وكان ناقوس نادل المطعم يرثى داعيا الحرفاء المتأخرين عن

المدينة التي لا تبرا من عللها

غونتر غراس

مواضيع كتيبي حتى ولو انها بدت بعيدة وغريبة عن أجواء برلين، فانها تنتمي اليها. فلقد ولدت هناك. وهناك تم تنظيمهما والتفكير في عناصرها وأفكارها. ان هذه المدينة تظل دائما نقطة بداية هروب خيالي الى عوالم بعيدة وغريبة.

وعلى كل، فان برلين مكان جد مُربك. وكل الذين يريدون امتلاكه بسرعة، يجدونه مبعاً. ان الاحكام المتسارعة الشبيهة بـ «برلين مريضة، برلين مختنصر، برلين تموت!!!» لا يمكنها البتة ان تسبب اي اذى لهذه المدينة المدمومة، ذلك ان امراضها هي في نفس الوقت ينابيع حيويتها ثم ان الموت والتلف يطبعان فنتتها الحشة. اني اتكلم عن المدينة بأكملها حتى وان كان الجدار، العاري والشرس، يحاول ان يقنع الناظر اليه بأنه مقام الى وقت طويل. غير انه مع ذلك لا يستطيع ان يمنعنا عن ان نرى ان نصفني المدينة يعيش كل واحد منها باتجاه الآخر.

خلال السبعينات، كنت من ضمن عدد قليل من الكتاب الذين تعودوا في ذلك الوقت على تنظيم لقاءاتهم في برلين الشرقية، دون حضور الجمهور، وذلك لتبادل الاراء وقراءة فصول

عندما قرّرت عام ١٩٥٣ الانتقال من المانيا الغربية إلى برلين، لم يكن في نيتي فقط البحث لنفسي وأنا النحات عن استاذ قدير وهو «كارل هوتونغ»، وانما كان قرارى يستند أساسا الى مبدأ: لقد كنت أريد أن أدير ظهري الى المعجزة الاقتصادية التي انفجرت فجأت في المانيا الغربية. وبرغم كل التحولات الاقتصادية والسياسية التي حدثت، فإن حكمي على برلين في تلك الفترة ظل هو نفسه الى حدّ هذا الوقت. ان هذه المدينة تعني بالنسبة لي المدينة التي ترفض ان تبرا من عللها. انها الجرح المفتوح باستمرار ذلك انها تبرز كل التضدعات التي عرفها التاريخ الالمانى. ويحجل في ان كل الازمات ذات الابعاد العالية، والتي يجربنا تنوعها ويظللنا، متمركزة في برلين، وكما لو ان هذه المدينة تريد أن تظهر لنا انها مثالية من خلال تراكم المشاكل.

وربما تكون هذه الصراحة وهذه القواعة اللتان تبرزهما برلين جراحها والتشوهات التي حدثت لها هما اللتان تبهيران الفنان وتشداده اليها. احيانا اكون بحاجة الى مسافة ما. ويطوح بي الاندفاع والحراس الى عوالم أخرى. غير انى سرعانا ما انتبه الى ان

عليه الصّناعة الادبية التي تنشط بحيوية كبيرة حتى في غياب الكتاب والمبدعين.

إن الكتب التي تظهر في برلين تحمل جراح وندوب مدينة تعوّدت على الألم. ومثل كل الاماكن التي يجع اليها الناس، فان برلين مكان ملائم للبالغات المستتيرة. وهي الوحيدة التي تجعلنا نأمل في حدوث معجزة ما. ولو لم تكن برلين موجودة، لكننا اخترعناها.

أو فقرات من اعصام الجديدة. وأنا اندهش شديد الاندهاش عندما أدرك الآن ان تلك اللقاءات التي استمرت أكثر من أربع سنوات ولا تزال الى حد هذا الوقت تؤثر بعميقيتها الخاصة، لم تكتشف من طرف احد ماعدا أجهزة الأمن بطبيعة الحال، وظلت طول الوقت مخفية عن فضول الجمهور. وهذا دليل قاطع على ان الحياة الادبية في برلين تنشط في فضائين منفصلين ومختلفين أيضاً. فضاء ينتج فيه المبدعون والفنانون في صمت ووحدة. وآخر تسيطر

حين تحط الطائرة في مطار برلين

بيتر شنيدر

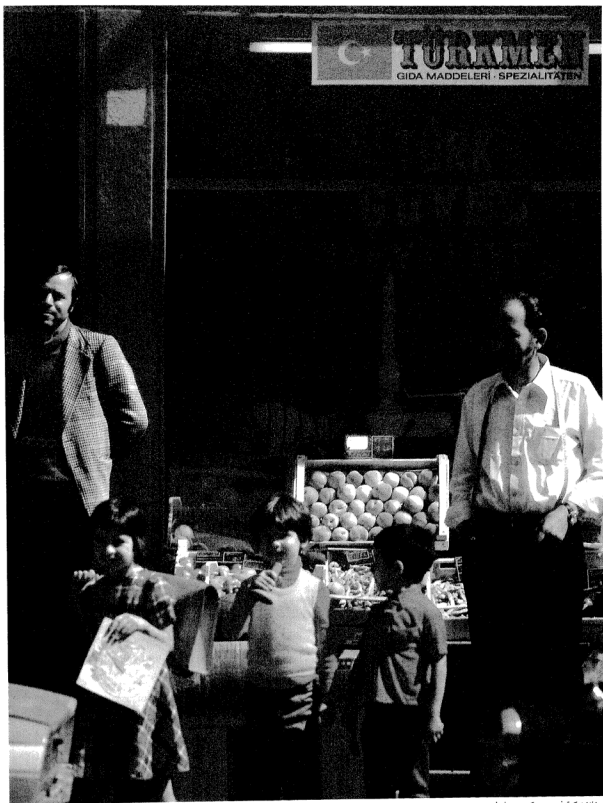
وتبدو المنازل الجديدة في ضواحي المدينة كما لو انها لم تبين من اسفل الى تحت. انها شبيهة بكسل من الاسمنت اسقطتها هيلوكوبترات امريكية اوسوفياتية. وعندما تبدأ الطائرة في الهبوط لا يتمكن الزائر الغريب من التفريق بين نصفى المدينة. وإذا ما تأمل المناظر الطبيعية المحيطة بالمدينة، فانه لا يرى اي لون سياسي لها. بل ان كل شيء، المباني الادارية، ومحطة التلفزيون، وقاعة المؤتمرات، وحديقة الحيوانات، والملاعب الرياضي، والفندق الرئيسي للمدينة، وغير ذلك من الاشياء، تعطي لزائر الغريب دليلاً على انه يقترب من مدينة موحدة ولا تعاني من أي انقسام ولا من أي صراع.

وبين كل هذه الزوايا المستقيمة، يبدو الجدار كما لو انه وحش صاغه خيال فوضوي. ومضاء بشمس الظهيرة، وبالكشافات ليلاً، يلوح كما لو انه عمل معماري في وليس خطأ حدودياً.

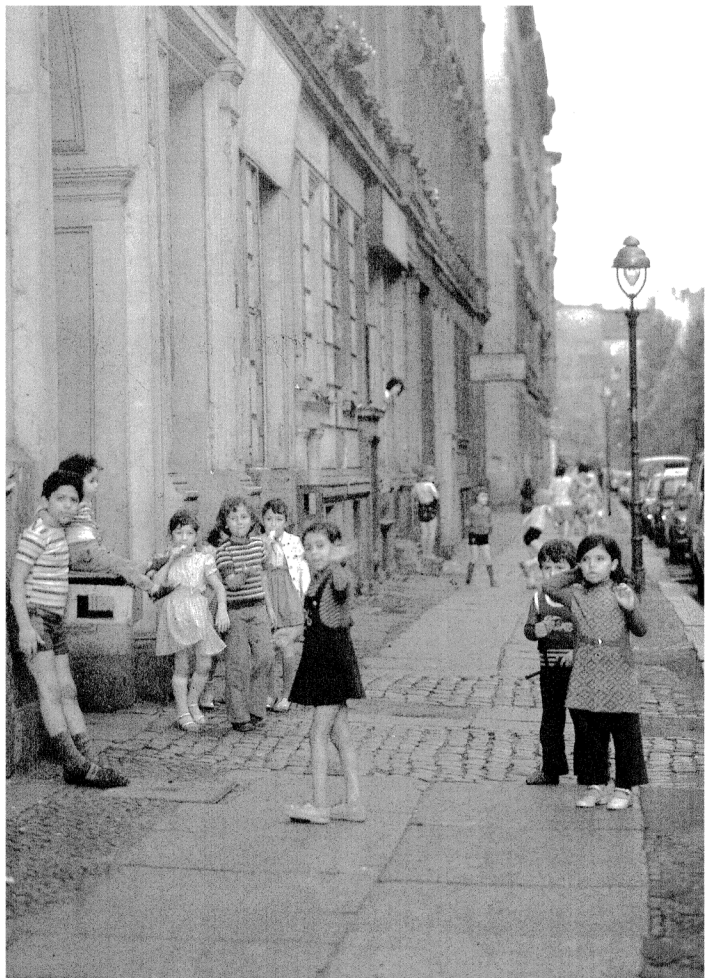
وعندما يكون الطقس جميلاً، يمكن للمسافر ان يشاهد ظل الطائرة وهويتسرب من هذا النصف الى ذاك ويظل الأمر هكذا حتى تلامس الطائرة الأرض. وعندئذ يتنبه المسافر الى ان الظل هو وحده القادر على ان يتحرك بحرية بين شطري المدينة ويتبدل في الطائرة عندئذ كما انها وسيلة من وسائل النقل التي تجعلنا نبشطين والتي خرج منها مسافرون صغار وغير مباليين بطريقة مضحكة لكي يزوروا مدينة مر عليها منذ أمس فقط الحاف.

طقس برلين يُبهِم عليه دائماً الرياح الغربية. والمسافر الذي يأتي بالطائرة له ما يكفي من الوقت لكي يتأمل المدينة من فوق. وقبل ان تحط الطائرة القادمة من الغرب، يجب عليها ان تحتاز المدينة ثلاث مرات. وهي تطير في البداية باتجاه الشرق، وعندئذ يمكنها ان تصل الى سماء برلين الغربية. وبعد ذلك ترسم خطاً منحنيًا وعريضاً باتجاه اليسار وتقر فوق الناحية الشرقية من المدينة. ومن جديد، وهي قادمة من الشرق، تمر للمرة الثالثة فوق المدينة وفوق الحائط الذي يفصل نصفها. وتبدو المدينة من الطائرة كما لو انها مدينة واحدة. وإذا لم يكن المسافر عارفاً بالامساكن، فانه لا يتصور البتة انه يقترب من منطقة تتجه فيها قارتان.

وما يلتفت الانتباه بقوة هو هذا النظام الخطي، وهذه الزاوية المستقيمة حيث لا يوجد أي خط منحني. وفي وسط المدينة يمكننا ان نلاحظ ان كل العبارات السكنية مبنية كما لو انها قلاع. وأغلبها تبدو كما لو انها مربعات ضخمة في وسطها ساحة داخلية تنتصب فيها شجرة كستناء. وعندما تتحرك اغصان هذه الشجرة قليلاً، يمكن للسكان في العارة ان يدرك ان هناك عاصفة وان قوة الريح هي بين الست والثمانية عقد. ويلغة البرلينيين، تسمى العبارات المذكورة كنكات للسكن. وهذا التعبير يجسد جيداً الطريقة التي صمم بها المعمار يون تلك العبارات. أما انتصاب المداخن فانه يذكر بتلك القطع البلورية التي توضع فوق جدران الساحات الداخلية لقطع الطريق على القطط وعلى اطفال الجيران.



مغارة تركية في حي «كروينسبارغ»



بحثا عن محمد علي الحامي^(١) في برلين

حسونة المصباحي

أخرى لرجال افضاء «ماتوا شهداء من أجل حرية وطننا»، هكذا كان يقول لنا معلمو الابتدائية. اتذكر قرينه «الحامة» هناك قرب قابس. واحات نخيل. عيون ماء ساخنة يأتيتها المصابون بالروماتيزم. ذباب. غبار وقلق تكاد تسمع صريره وهو يأكل الوقت. نساء سمراوات في ملاءات سوء يطلن من خلف الابواب بين وقت وآخر. شيوخ جالسون أمام الدكاكين أوفي ساحة السوق. احمررة وبغال مشدودة الى أعمدة خشبية. وغير بعيد من هناك تمتد الصحراء موحشة وفارغة. أمضيت ساعات طويلة وأنا أبحث عن أثر له. غير أنني لم أعر سوى على صورة له مغيرة ومتأكلة الاطراف، معلقة في مكتب اتحاد النقابات هناك. سألت شيوخا عنه فقالوا لي أنهم يعرفون بعض أفراد عائلته، أما هو فلا يعلمون عنه شيئا. الخ في استلثي غير أنهم يزيدون إغلا في الضمت. أتبعد. الولد الأسمر النحيل ياتلق من قرينه البائسة والمزعزعة قبل ان يدرك سن المراهقة. التحق بأخيه الأكبر الذي كان يعيش في العاصمة ليكسب قوته كما هي عادة أغلب أبناء «الحامة». وحال وصوله اشتغل خادما في بيت القنصل النمساوي. وربما يكون قد اكتشف هناك وهو يتأمل سيدات ورجال أوروبا المتعددة أنه عليه ان يوغل بعيدا في المغامرة لفهم تلك الفكرة التي استحوذت عليه وهو لا يزال في سن الشباب المبكر: كيف تتحرر الشعوب وكيف تتطور الأمم؟ نفس الفكرة التي كانت شغلت المصلح التونسي الكبير الوزير خير الدين باشا التونسي والتي عالجها في كتابه «أقدم المسالك في تحرير الممالك». غير أنه مضى دون ان يتمكن من تحقيق حتى القليل مما كان يدعو اليه. وتقول الاخبار أنه رحل من تونس يائسا، وأنه لما ركب الباخرة التي نقلته الى الاسنانة، سقط طربوشه فقال كلمته الشهيرة: «هذه البلاد سوف تأكل أعز آبائنا!». ولم يكن محتل في مقام الوزير خير الدين. كما أنه لم يكن مطلعاً مثله على أساليب التمرد وعلى أسرار الحكم. بل أنه كان رقيقاً عديم التجربة، غير أنه كان يتمتع بفضة ساعدته على التنصت الى حركة المجتمع، وعلى السعي الى فهم ما كان يدور حوله من أحداث. وهذا ما دفعه وهو الخادم البسيط في بيت القنصل النمساوي الى الالتحاق بالحركات الوطنية وبالنشاطات الاصلاحية التي كانت تنشط في تلك الفترة. كانت تونس خلال بدايات القرن تعيش بقطعة على جميع المستويات.

بدايات الحريف الشامي: الأشجار تتعري ببطء. الأوراق الصفراء والسمرات تغطي الأرض والأرصعة. رياح خفيفة تداعب هامات الغابات المذهبة. نهر «السيري» يتدفق هادئا ومتعبا. لا شيء على ضفتيه غير عجائز وشيوخ يتمتعون ببجال الحريف، ويسدده شمس تظهر حيناً، وتختفي حيناً آخر وراء كتل من السحب المتفرقة. يدخل الباص البرتقالي ذو الطابقين جادة «الكودام» الشهيرة، ويسير متمهلاً بين أشجار الزيزفون. برلين! آه برلين! يرن اسمها في أذني كما يرن اسم الأطفال أيام الأعياد، ثم تلج جسدي نغماً منعماً بأحاسيس ومشاعر غريبة. طويلاً تردت قبل ان أقرر زيارتها، وذلك بالرغم من أنني أقوم غير بعيد عنها منذ أكثر من عامين. ثمة شيء كان يحول بيني وبينها. ودائماً كنت أحس أنه علي ان أستعد استعداداً خاصاً قبل ان ادخلها. بعض الاصدقاء في ميونيخ كانوا يقولون لي: «لا تذهب الى برلين!» وعندما أسألهم عن السبب كانوا يتسمون ويقولون لي: اذا ذهبت الى برلين فلن تعود منها. انها مدينة فائنة ومجنونة تستبد بعشاق الليل امثالك! وكنت أدرك جيداً معنى ما يقولون. ولذا فاني حين بدأت أهوى رحلتي اليها، شعرت أنني سأذهب الى مدينة تختلف عن كل ما رايت من المدن الأوروبية. مدينة تحمل جراح التاريخ الإنساني والأوروبي في آن، «ولأنها من عائلها» على حد تعبير الكاتب الألماني غونتر غراس. مدينة تتجسد فيها أخطر الصراعات وأعنف التناقضات التي يشهدها هذا العصر. مدينة الجنون والفاستانازيا والحلب والحدق على حد السواء! «سدم القرن العشرين» أو «الفساجرة الكبيرة» كما يسميها كلاوس مان ابن الكاتب الشهير توماس مان.

ادخل برلين بحثاً عن أوجاع وهموم غربة قديمة. غربة متفقد من قربة بائسة في الجنوب التونسي قادته الدروب الى برلين في نهايات الحرب العالمية الاولى. ولست أدري لماذا اتجه الى هناك في فترة كان فيها أغلب المثقفين المغاربة والعرب يتجهون صوب باريس ولندن وأمريكا. ولن أبحث في هذا الأمر ذلك أنني أعلم ان رحلات المغامرين الكبار لا منطق لها ولا تفسير. انها الية الرائع والشامل. هكذا كانت رحلات اوليس، والسندباد، وابن بطوطة، وماجانان، وكريستوف كولومبس وغيرهم كثيرون. اسمه محمد علي الحامي. اسم حفظناه ونحن صبيان مع الشيد الوطني ومع أساء

طرابلس انه لابد أن يفعل شيئا ما لذلك الوطن الذي تركه خلفه . ثم شوهد محمد علي عام ١٩١٢ في اسطنبول التي أقام فيها حتى نهايات الحرب العالمية الاولى . كيف عاش هناك ؟ الأخبار بشأن هذا الموضوع مضطربة الى حد كبير . البعض يقول انه التحق بالجيش العثماني وعاش متنقلا بين الكتل العسكرية . والبعض الاخر يقول أنه كان السائق الخاص لأورباشا وزير الخارجية في الحكومة الثالثة لحزب الاتحاد والترقي (طلعت - أنور - جمال) . وآخرون يشيرون أنه ساهم مع رجالات تونس المهاجرين والمنفيين في التعريف بالقضية الوطنية التونسية ، وفي كشف جرائم السلطات الاستعمارية الفرنسية في كل من تونس والجزائر والمغرب . لكن المهم هو ان محمد علي عاش في اسطنبول في فترة كانت تشهد أحداثا تاريخية لم يسبق لها مثيل : امبراطورية «الرجل المريض»

المصلح الكبير محمد عبده يزور تونس ويلقي محاضرات في النوادي الثقافية يكون لها تأثير كبير على النخبة التونسية . طلبة جامع الزيتونة يتظاهرون في ربيع ١٩١٠ مطالبين بتجديد أساليب الدراسة وبإدخال العلوم الحديثة الى مناهج التدريس . جماعة «تونس الفتاة» بقيادة زعيمهم المستنير علي باش جابنه يؤسسون النوادي الثقافية في العاصمة ، ويخطبون في التجمعات الطلابية محرضين على الاستنارة وعلى ضرورة الاستفادة من التمدن الأوروبي . مظاهرات صاخبة عام ١٩١١ هذ التجنيس وضد أساليب التفرقة التي كانت تنتهجها السلطات الاستعمارية الفرنسية بين العال الأوروبيين والعال التونسيين وتلك القضية الشعبية التي كان يرددها الناس (٢) : اخدموا وتحزم بشرائط حل الصّورة تلقى خيوط



فاريت بن عامين



غوربال بن

تحتضر ، والقوى الامبريالية الكبيرة تتحارب بضراوة لتتقاسم النفوذ في العالم ، والعالم العربي الاسلامي يبيض ببطء ويستعد لدخول مرحلة جديدة في تاريخه . ومن الاكيد ان ذلك الشاب النحيل أدرك بقطنته الرفيعة ان آخر الامبراطوريات الاسلامية تندفع نحو الهاوية ، وأنه عليه ان يرحل باتجاه اوروبا ليزداد ادراكا ووعيا بمعنى مكان يدور حوله . وهكذا دخل برلين ونار الحرب لما تزل مشتتلة ، بينا في بلاد القياصرة المترامية الأطراف ارتفعت الاعلام الحمراء ، وأعلن البلاشفة عن تكوين أول جمهورية وللعمال والفلاحين .

برلين! انصوّره بدخلها في بدايات شتاء بارد ، بعد رحلة طويلة قطع خلالها بلاد البلقان . آثار وروائح الحرب في كل مكان . شوارع يتكدس فيها العاطلون والمشوهون والارامل والاطفال والمهاجرون والجنود المهزومون العائدون من جبهات القتال . يمشي فيها مرتبكا كعادة كل الرافقين في المدن الكبيرة . وتبدو له برلين في البداية شبيهة ب «كتنة عسكرية باردة وشعبة» ،

احدكم حتى لين تموت ياباب الله : تنال القسوت ثم يهاجم الطليان ليبيا ، فيتدفق المتطوّعون التونسيون لمناصرة اخوتهم هناك . وتزغرد نساء الجنوب السمراوات وهن يسمعن طلقات الدغابجي (٣) في جبال عرباطة (٤) الجرداء . ويضحي رجال الى الموت متشددين :

خمس الى حقوا بالجرّة ملك الموت يراحي

لحقوا مؤلي الحركة المرّة المشهور الدغابجي (٥)

ويترك محمد علي بيت القفص النمساوي ، ويرحل عبر الصحراء الى طرابلس . هل قاتل هناك ؟ لا احد يدري . هل كانت مهمته تقتصر على الاتصال ببعض زعماء المقاومة ؟ لا احد يدري أيضاً . انها الخطوات الاولى في طريق المغامرة الطويلة والشاقة . ومن الاكيد ان محمد علي ما خرج من تونس ، كان مدركا لأشياء كثيرة ، وكان مطلعاً اطلاعا جيدا على الاحداث السياسية . بل انه ربّما شعر وهو يشق صحراء الجنوب باتجاه

ما أروع الحريف في المدن التي نحب! اجلس على مقعد خشبي في إحدى الساحات الصغيرة، وأنقل محمد علي الحامي يأتي الي في معظمه الرمادي الطويل ويحتضني. ثم يأخذني عبر الشوارع التي سار فيها، والاسكان التي تردد عليها، والمقاهي التي جلس فيها، ويحدثني عن همومه، وعن أفكاره وعن النساء اللاتي دلفن فراشه، فراش المغترب، وعن الرجال الذين تقاسم معهم الأم الغريبة ومصاصيها. انتظر. لكن لا شيء غير صورته المغربة والمتأكلة التي رأيته معلقة في مكتب اتحاد النقابات هناك في قريته البعيدة. انظر حولي فانتبه الى أني جالس في ساحة تحمل اسم الرسام الشهير «غيورغ غورس» الذي رسم الحياة اليومية لبرلين العشرينات. اعاد السير، وبيته خيالي في عوالم تلك المرحلة الرائعة من تاريخ برلين.



محمد علي الحامي في شقة في برلين

ابتداء من عام ١٩١٠، بدأت برلين تشهد نشاطا ثقافيا وفنيا لا مثيل له. وكل ذلك كان يدور في الكاباريات وفي مقاهي عديدة اشتهرها مقهى «Caré Größenwahn» أي مقهى «هذيان العظمة» نظرا للمشايخ المجنونة وللإحلام الفنية والأدبية التي ولدت فيها. وكان يؤمها بوهيميون، وهامشيون ورسامون، ومثلون، وشعراء. وفيها ولدت الحركة «التعبيرية» الشهيرة. غير أن هذا النشاط الفني والثقافي الرابع سرعان ما توقف خلال سنوات الحرب، وأنه بالاحسرى ظل ينمو في العتمة، وفي الشوارع الخلفية لمدينة برلين بعيدا عن دوي المدافع، وعن غطرسة الجسالات البروسيين القسا. وما أن خمدت نيران الحرب، حتى عاد أولئك البوهيميون والفنانون والشعراء الى ممارسة «هذيانهم» في المقاهي والكاباريات غير مباليين بشيء. ولأن برلين تتمتع بقدرة على التحدي لا تتمتع بها مدينة أوروبية أخرى، فانها سرعان ما نسث فواجع الحرب والامها، وارتمت نعمة وعطش في بحر اللذات. وفي فترة قصيرة،

ويبدوله البروسيون بغطرستهم «كما لو أن كل واحد منهم قد ابتلع الهراوة التي أشبع بها ضربا ذات مرة». وسرعان ما تفوح رائحة الهزيمة في كل مكان. وينتهوى الحلم البروسي ملها يتهوى فجأة الحصان الجامح. وها الفتى النحيل يسير في شوارع برلين ملتقا بمعطف سميك، منتبها الى ما يدور حوله، مصغيا الى انات ضحايا الحرب، مدركا أن مغامرته التي بدأت منذ سنوات أخذت منزعجا جديدا وهو هناك في قلب أوروبا المتشددة والقوية. ووسط ذلك الجوّ القاتم، تشن تلك المناضلة الاشتراكية العجاء التي تسمى روزا لكسمبورغ معركة عنيفة ضد البورجوازيين وضد جنرلات الحرب البروسيين. وتؤسس حركة «السياراتكوس» وتدعو من خلالها الى ضرورة إقامة «جمهورية العمال». غير أن أعدائها لا يملكونها. وذات ليلة يدهم الجنود البيت الذي كانت تختفي فيه، ويأخذونها صلبة رفيقها «كارل لينخت» إلى «فندق عدن» الفاخر. وهناك ينكلان بها على مرأى ومسمع من «النزلاء» وهم في بدلات السموكينغ الانيقة. وبعد ذلك يفجرون رأس كارل لينخت، ويصلحون روزا لكسمبورغ ويسحبونها على الأرض وهي نصف ميتة. وداخل عربة عسكرية يفجرون رأسها برصاص ثم يلقون بجثتها في نهر «السيبري». هل تعرف محمد علي الحامي على روزا لكسمبورغ قبل قتلها؟ البعض يشيع ذلك. غير أنه ليس هناك أي دليل مقنع بخصوص هذا الموضوع. ومع ذلك فإن الثابت هو أن محمد علي الحامي تابع باهتمام ما حدث لقادة حركة «السياراتكوس»، وربما يكون قد تأثر بشيء من أفكارهم. وهوما ستؤكد الأحداث فيما بعد. ومن الثابت أيضا أنه كان على اتصال بالحركات السياسية والنقابية، وبمناضلين اشتراكيين وديمقراطيين، وبمهاجرين مثله. كما أنه كان يتردد باستمرار على «الناسد الشرقي» ببرلين الذي كان يرأسه المناضل العربي الكبير شكيب ارسلان. ومع ذلك تبقى المعلومات قليلة بخصوص الستة أعوام التي اقامها محمد علي الحامي في برلين. والذين لازموه أثر عودته الى تونس وخاصة صديقه وابن قريته المصلح الطاهر الطاهر (١) لا يقولون شيئا كثيرا بخصوص هذه المسألة. غير أنهم يؤكدون أنه حصل هناك على شهادة دكتوراة في الاقتصاد. هل هذا صحيح؟ الغموض يحيط بالفتى الجنوبي حتى النهاية. والواضح أنه انتسب فعلا الى جامعة «هامبولت» الحرة في برلين. ورئيس هذه الجامعة المذكورة يقول في وثيقة نشرت في كتاب عن حياة محمد علي الحامي صدر عام ١٩٨٥ (٢) أنه «لا توجد شهادة علمية تحمل اسم الشخص المعني بالأمر. إلا أن أوراق الارشيف تؤكد أن محمد علي الحامي كان مرسما بكلية الفلسفة (فرع الاقتصاد) وأنه وقع فتح ترسيمه لعدم مثابرتة» ومع ذلك فإن كل شيء يشير الى أن الفترة التي عاشها محمد علي الحامي في برلين كانت من أخصب فترات حياته، أنه أذ تعلم خلالها أشياء كثيرة. واحتك بالناس، وزداد معرفة بالحقبة والتاريخ، وأيضا بأحوال الأمم والشعوب. السعاسة الثالثة ظهروا. أمشي في جادة «الكودام» مستمتعا بالهواء البرليني العليل، وبخشخشة الأوراق الميتة تحت الاقدام. أه

حول فنانون وكتاب من أمثال «لودفيك كيرخا» و«يرتولد برخت» و«تيخولسكي» و«هاينريش مان» وغيرهم، مدينة برلين إلى عاصمة ثقافية لأوروبا بأسرها، يؤمها الفنانون الطليعيون والثوريون من كل مكان.

كانت برلين خلال العشرينات تجرع وتألم. وكانت بناياتها رصادية، وشوارعها قلدة وشيعة غير أنها مع ذلك كانت ترقص وتغني حتى الصباح، وتستمتع بمسرحيات «ستراندبارغ» و«ابسن» و«ماكس رايهارد» وبأشغال «يرتولد برخت» الحماسية، وبقصائد وكتابات «غوتفريد بن» المولغة في اليأس والشاؤم، وبمقالات «تيخولسكي» العنيفة والساخرة، وبلوحات الرسامين التعبيريين من أمثال «ادوارد مونش» و«كوكوشكا» و«شاغال» وغيرهم. وكان ثمة شاب بنظارة، ويشعر غزير، ويشارب كث يتجول في شوارعها وفي مكاتبها، ويسجل في دفاتره ملاحظات كثيرة تكون في مرحلة لاحقة، الأساس لأعمال فكرية ونقدية وفلسفية متميزة. هذا الشاب كان يدعى «فالتر براين».

وفي تلك الفترة أيضاً كانت برلين متعددة. كانت هناك ألف «برلين» كما يحلو للبعض أن يقول: برلين الحمراء، أي برلين الفقراء والعامل والبروليتاريا الرثة الذين يسكنون أحياء «فيدنينغ» و«كرويتسبارغ» و«برلين تريغراتن» المارجوزاوية، و«برلين غرينفالد» الاشتراكية، و«برلين المهاجرين الروس»، و«برلين الشعراء الشيوعيين السوفييات من أمثال «ليستسكي» و«مايكوفسكي» و«ايسنين» و«بايلي». وكانت هناك أيضاً برلين الشيوعية و«برلين التي حمى نفسها للانتقام من الذين هزموا جيوشها، وحطموا أحلام جنرالها».

ولعل أروع رواية صورت تلك الفترة هي رواية «الفريد دولن» الشهيرة برلين - ساحة الاسكندر». وهي رواية ضخمة ومليشة بالتفاصيل مثل رواية «عوليس» لجيمس جويس، وأبطالها عاطلون وهامشيون، وعاهرات، وعازفو الأرغن والذين كانوا يهيمون في الشوارع، ويتنقلون بين البارات القذرة، ويأمنون في ملاجئ شارع «فروويل» الليلية. وكل هذه العوالم الجحيمية والبانسة يصغفها لنا «دولن» من خلال شخصية سجين قديم اسمه «فرانز بيباركوف» شبيه إلى حد بعيد بسعيد مهرا بطل رواية «الصل والكالب» لتجيب محفوظ.

هل تأثر محمد علي الحامي بعوالم برلين خلال العشرينات؟ هذا مؤكد خاصة وإن جل الرشايق تثبت أنه كان يتقن الألمانية والفرنسية لكن المرجح هو أن محمد علي قد اهتم بالأحداث السياسية والثقافية، وبالأحزاب الاشتراكية وغيرها أكثر مما اهتم بأي شيء آخر. وواضح جداً أن الفكرة الأساسية التي كانت تشغل ذهنه طول الوقت هي: ماذا يمكنه أن يفعل لذلك الوطن الذي رحل عنه منذ سنوات طويلة؟

أين سكن في برلين؟ يحلو لي أن أخجل دائماً. وأراه يسكن شقة صغيرة في حي «كرويتسبارغ» العمالي حيث المهاجرين والمحرضون السياسيون والنوادي الاشتراكية، والمثقفون التقدميون والثوريون.

في الساعة العاشرة ليلاً أركب الباص رقم ٢٩ وأتوجه إلى حي «كرويتسبارغ». انزل في إحدى الساحات. لا أحد غير بعض السكرى، أتمشى على مهل. الشوارع فارغة أوتكداء. يعترضني رجل ضخم يدب تقبلاً ويسعل في كل خطوة تقريبا. أسأله عن أهم الأماكن في الحي، فيجيبني دون أن يلتفت إلى «أذهب في أي اتجاه وسوف تجدنا» أسير لمدة عشرين دقيقة، وأجد نفسي في شارع به مطاعم ومقاهي كثيرة. أدخل واحدة أسمها مقهى «القاهرة». أجلس هناك أكثر من نصف ساعة، ثم أسأل النادل اللبناني عن سبب فراغ الحي فيقول لي مبتسماً «لقد أتته مبكراً. إذا أردت الاستمتاع بأجوائه الجميلة فتعال إلى اليه عند منتصف الليل لا بعدة بقليل» أركب الباص ٢٩ من جديد، وأعود إلى الفندق. أحاول أن انام. غبراني لا أستطيع برغم التعب: أقلب صحفاً وأوراقاً. أطفئ النور انتظر. لا يأتي النوم. أخرج إلى المدينة من جديد. آفأ أمام قاعة سينما. فيلم «اللامرئشون»، بطولة «روبرت دي نير» و«شين كوزي». لا أتدرد في الدخول. الفيلم جميل وهويروي قصة المافيا الإيطالية في شيكاغو خلال الثلاثينات. ويصفق الجمهور أكثر من مرة أعجاباً ببعض اللقطات حتى أنني تخيلت نفسي في قاعة «ستوديو ٣٨» في جادة الحبيب بوققيه بالعاصمة التونسية (قاعة تعرض أفلام الومسارن والكاراتي. والمغامرات البوليسية). بعد أن ينتهي الفيلم، أتمشى في جادة «الكودام» فأجد مدمها كما في الخامسة ظهراً! في ربيع عام ١٩٢٤، ترك محمد علي الحامي برلين تعيش عوالمها الوردية، غير مبالية بما كان يترصدنا من فواجع وإخاطر، ويعود إلى الوطن بعد ثلاثة عشرة سنة من الغياب. ومن المؤكد أنه شعر بضرورة ذلك خاصة وإن التجارب والمحن التي عرفها أثناء سنوات الترحال والأغتراب تخول له أن يشرح في إنجاز ما كان وعد به وطنه وهو يجتاز الصحراء باتجاه برايلس.

ويصل محمد علي الحامي إلى تونس فيجدها تعيش أياما عصيبة، وظرفها قاسية: مجامعات، وقمع، وثقت في صفوف الحركة الوطنية، ويأس تام من تلك الوعود التي لocht بها السلطات الاستعمارية خلال الحرب وبعدها. وكان المناضل الكبير الشيخ عبد العزيز الثعالبي صاحب كتاب «تونس الشهيد» يجول في بلاد الشرق، ويتصل بالزعماء الوطنيين، ويرجالات الحكم في مصر وفلسطين والحجاز والعراق. وكان هناك مناظرون آخرون في المناق. ومن تبقى منهم صامت خوفاً من القمع. وهناك في قلب المدينة العتيقة، وعلى مسافة قريبة من جامع الزيتونة، فتية هامشيون يجتمعون في مقهى شعبي يسمى مقهى «تحت السور». وكانوا يعمدون ويسخرون من الدنيا والناس، ويكتبون وسط دخان السجائر وضحج الزبائن قصائد وأغاني، ومقالات ساخرة، وقصصاً قصيرة مستوحاة من أجواء «غني دي موبسان» وكان من بين هؤلاء محمد العربي البودليري المشتهل، وعلي الدوعاجي القصير والحداد المسال، وعبد الرزاق كركاكة المشيع بالثقافة الشعبية وآخرون كان لهم دور كبير في تطوير الثقافة التونسية

حول فنانون وكتاب من أمثال «لودفيك كيرخا» و«يرتولد برخت» و«تيخولسكي» و«هاينريش مان» وغيرهم، مدينة برلين إلى عاصمة ثقافية لأوروبا بأسرها، يؤمها الفنانون الطليعيون والثوريون من كل مكان.

كانت برلين خلال العشرينات تجرع وتألم. وكانت بناياتها رصادية، وشوارعها قلدة وشيعة غير أنها مع ذلك كانت ترقص وتغني حتى الصباح، وتستمتع بمسرحيات «ستراندبارغ» و«ابسن» و«ماكس رايهارد» وبأشغال «يرتولد برخت» الحماسية، وبقصائد وكتابات «غوتفريد بن» المولغة في اليأس والشاؤم، وبمقالات «تيخولسكي» العنيفة والساخرة، وبلوحات الرسامين التعبيريين من أمثال «ادوارد مونش» و«كوكوشكا» و«شاغال» وغيرهم. وكان ثمة شاب بنظارة، ويشعر غزير، ويشارب كث يتجول في شوارعها وفي مكاتبها، ويسجل في دفاتره ملاحظات كثيرة تكون في مرحلة لاحقة، الأساس لأعمال فكرية ونقدية وفلسفية متميزة. هذا الشاب كان يدعى «فالتر براين».

وفي تلك الفترة أيضاً كانت برلين متعددة. كانت هناك ألف «برلين» كما يحلو للبعض أن يقول: برلين الحمراء، أي برلين الفقراء والعامل والبروليتاريا الرثة الذين يسكنون أحياء «فيدنينغ» و«كرويتسبارغ» و«برلين تريغراتن» المارجوزاوية، و«برلين غرينفالد» الاشتراكية، و«برلين المهاجرين الروس»، و«برلين الشعراء الشيوعيين السوفييات من أمثال «ليستسكي» و«مايكوفسكي» و«ايسنين» و«بايلي». وكانت هناك أيضاً برلين الشيوعية و«برلين التي حمى نفسها للانتقام من الذين هزموا جيوشها، وحطموا أحلام جنرالها».

ولعل أروع رواية صورت تلك الفترة هي رواية «الفريد دولن» الشهيرة برلين - ساحة الاسكندر». وهي رواية ضخمة ومليشة بالتفاصيل مثل رواية «عوليس» لجيمس جويس، وأبطالها عاطلون وهامشيون، وعاهرات، وعازفو الأرغن والذين كانوا يهيمون في الشوارع، ويتنقلون بين البارات القذرة، ويأمنون في ملاجئ شارع «فروويل» الليلية. وكل هذه العوالم الجحيمية والبانسة يصغفها لنا «دولن» من خلال شخصية سجين قديم اسمه «فرانز بيباركوف» شبيه إلى حد بعيد بسعيد مهرا بطل رواية «الصل والكالب» لتجيب محفوظ.

هل تأثر محمد علي الحامي بعوالم برلين خلال العشرينات؟ هذا مؤكد خاصة وإن جل الرشايق تثبت أنه كان يتقن الألمانية والفرنسية لكن المرجح هو أن محمد علي قد اهتم بالأحداث السياسية والثقافية، وبالأحزاب الاشتراكية وغيرها أكثر مما اهتم بأي شيء آخر. وواضح جداً أن الفكرة الأساسية التي كانت تشغل ذهنه طول الوقت هي: ماذا يمكنه أن يفعل لذلك الوطن الذي رحل عنه منذ سنوات طويلة؟

أين سكن في برلين؟ يحلو لي أن أخجل دائماً. وأراه يسكن شقة صغيرة في حي «كرويتسبارغ» العمالي حيث المهاجرين والمحرضون السياسيون والنوادي الاشتراكية، والمثقفون التقدميون والثوريون.

ومثلما روى «العم حمة» فإن محمد علي الحامي راح يطوف البلاد من أقصاها إلى أدناها مرفوقا بالقليل من انصاره، ناشراً دعوته بصوت واثق وهادئ، ويصبراً ليمتصع به إلا من قرع بالخيلة. ونحن نجده مع عتالي بنزرت، ومع العال الزراعيين في غار الملح وماطر، ومع عال الرصيف في تونس العاصمة، ومع أهالي زغوان. ولعل أهم ما قام به أثناء جولاته تلك هو اتصاله بعالم مناجم الفوسفات في منطقة المتلوي بالجنوب التونسي، والذين كانوا يعيشون أوضاعاً قاسية تتجاوز إلى حد بعيد تلك التي وصفها لنا «أميل زولا» في روايته الشهيرة «جرميال». ويروي الطاهر الحداد أن محمد علي كان يتأثر بشديد التأثير بمناظر البؤس والفاقة، وأنه كان يتحدث كثيراً في جلساته عن مشاهد الجوع التي رآها في مناطق الجنوب التونسي، وعن قوافل البدو المتجهة إلى

الحدينة. وكان الشابي يصرخ ملثاعاً ويأشأ:

ألا أيها الظلام المستجيب
حيب الظلام، عدو الحياة
سخرت بأنات شعب ضعيف
وكفك شخصوبة من دماء
وسرت تشوه سحر الوجود
وتبذر شروك الأسى في رساء
وفي المساءات كان يهيم في حداثق البلديدير للتخفيف من الام مرض القلب الذي كان يعاني منه. وكان هناك رجل طريف يدعى علي الجندوبي يجول في المدينة كل يوم حاملاً قفة ضخمة بها المقال اليتيم الذي نشرته له إحدى الصحف التونسية. وذمة فتى أسمر ونحيل، من نفس منطقة محمد علي الحامي، يدعى الطاهر الحداد كان ينادي بضرورة تحرير المرأة، متحدثاً بسلطة فقهاء جامع الزيتونة الذين لم يترددوا في تكفيره وفي المطالبة برجمه. وحالما يصل محمد علي إلى تونس يتخذ رفيقاً له في دعوته الجديدة. ومعه يجول المدن والقرى والمد اشتر سعيلاً لتأسيس أول اتحاد نقابي للعاملين والحرفيين التونسيين.

اكتسب محمد علي الحامي خلال اقامته في برلين تجربة فضالية مهمة، وقدرة فائقة على التنظيم والتخطيط. ولأنه عمل كما تؤكد ذلك بعض الوثائق، في إحدى المعامل الكبرى للسيارات، فإنه قد يكون اطلع على برامج التقنيات والمنظّمات العالمية، وقرّس بتجارها في النضال، وادرك ان المجتمع اذا لم تتضامن فيه قواه الحية لا يمكن ان يتحرّر. وهكذا وحالما حظ الرجال شرع في تنفيذ فكرته.

كان اسمه «العم حمة». كان دائماً في كسوته الزرقاء. ولاتكاد سيجارة «الارتي» تفارق فمه. كنا نجلس في ذلك المقهى المعتم هناك قرب ميناء بنزرت. وكان يجذني عن أيام قديمة، وعن ذكريات شبابه، وعن استشهاده احد أبائيه في معركة بنزرت. أه! كم كانت جميلة تلك الأيام! كنت انهم الكتب، وانتردد على صيادي الاسماك، والعب الورق مع الجنود، وأعاكس النساء في السوق المركزي، وبنات المعهد في مكتبة المدينة. كنت سعيداً برغم البطالة. وكان العم حمة يقول لي دائماً «خذ هذه السجارة وسيفرحها الله في يوم من الأيام». وذات مرة اخذني إلى بيته هناك في «حي الاندلس». أجلسني في الصالة الصغيرة، المتواضعة الاثاث وأتاني بكأس شاي. انتهت إلى أنه يعلق صورة كبيرة لمحمد علي الحامي. ولما راني احرق فيها قال لي «اتعلم اني أحب هذا الرجل تماماً مثلما أحب ابني أو ابني الذي مات». مازلت اذكر إلى حد الآن يوم جاءني ابني بنزرت. كنت إذ ذاك في الثانية عشر تقريباً، وكنت اصحاب ابني من حين لآخر إلى الميناء لانه كان يعمل عتالاً. وذلك اليوم جاءنا رجال وخطب فينا فتى نحيل وهادئ. لم أفهم ما قاله فانا كنت صبياً ساذجاً في ذلك الوقت، غير أني ادركت ان ابني وجميع العتالين استحسنوا ما قال وصفقوا أكثر من مرة. ومن بعد فظاهر العتالون في شوارع بنزرت. وأطلق الخندمية الرصاص. وسقط خمسة أو ستة. لا أذكر. ولما كبرت، وأنضوت إلى النقابة انتهت إلى ان ذلك الفتى الأسمر والنحيل هو محمد علي الحامي.



فداء «البكة» في برلين.

المدين بحثاً عن القوت بعد ان اكلت الجوائح المتوالية مزارعهم وأنعامهم. ويروي أيضاً انه كان يطوف معه في العاصمة في ليالي الشتاء الباردة. وأنه كان يحزن شديد الحزن حين يرى أناساً وأطفالاً دون سن الرشيد ينامون على الأرض أو في مداخل البنايات والذين عاشوا تلك الفترة يقولون ان حمة علي كان يتمتع بذلك حاد، وبقدرة فائقة على التنظيم والافتاع. وكان رصيناً، ومسالماً، وفالحاً في مخاطبة البسطاء من الناس، وفي ارشادهم وتوجيههم. إلى جانب هذا كله يذكر الحداد أن محمد علي كان شغوفاً بالموسيقى الكلاسيكية الألمانية إلى حد بعيد، وأنه حريص على الاستماع إليها أثناء السهرات. وكان يحرض أصدقاءه على ان يفعلوا مثله لأن تلك الموسيقى حسب رأيه تهب الإنسان القوة والنشاط، اما الموسيقى العربية فهي توجع وتوابع وأهأت تثقل النفس والروح. وهذا ما يؤكد لنا أن محمد علي الحامي قد استفاد

وجسدة بوادي مصيلة فبات متأثرا بجرح خطير في دماغه . وفن هنالك . وهكذا مضى ذلك القتي الجنوبي المغامر لفته هالة من ذلك الغموض الذي رافقه من البداية الى النهاية .

تقول في العجوز اللطيفة التي تدبر بنسيون «كولومبو» حيث سكنت : ماذا سكتك عن برلين؟

اقول لها : عن محمد علي الحامي .

تعدّ راسها مستفسرة . أنطق الاسم من جديد . واروي لها تفاصيل حياته . فتفتح فمها مندشه وتقول لي «كانها قصّة من ألف ليلة وليلة!» تصمت قليلا ثم تضيف : «احيانا لا يمكننا ان نتصوّر ماذا يمكن ان يفعل شخص واحد في تاريخ امة من الامم أو شعب من الشعوب» .

أجلس في المقهى المواجه للبنسيون . مقهى جميل تضيئه شموع بتفسيجية ، ويؤمّه طلبة وعشاق وفنانون . اكتب بطاقات لاصدقاء بعيدين . وعلى ظهر احداها اكتب لصديقي عبد الجليل بوقرة المقيم في القيروان : «بحث عن اثر لمحمد علي الحامي ، فلم أعر على شيء . غير اني أخال أنه معي في الشوارع والساحات ، ويقاسمني غرفة البنسيون ، وأيضا كأس البيرة الذي امامي» .

صديقي عبد الجليل بوقرة هو ايضا يعلق صورة ضخمة لمحمد علي الحامي في . وفرة قال لي : «أساتذة الجامعة عندنا يتقنون في الوثائق ويتجادلون طول الوقت لكي يثبتوا ان محمد علي لم ينل شهادة الدكتوراة . يالهم من أغبياء» . الا يعلمون ان حياة المغامرين الكبار لا تقاس بالشهادت وان اكثرهم جرة لن يتمكن من أن يعيش يوما واحداً من ايام رحلة محمد علي الطويلة» .

المواش:

(١) محمد علي الحامي (١٨٩٠-١٩٢٨) : متاقل وطني تونسي ومؤسس أول منظمة نقابية تونسية .

(٢) معنى هذه القصيدة هو:

أعمل بجهد لكك لن أحصل على شيء . أعمل حتى تسقط ريتك لكك بلكاد نوتال قوتك .

(٣) الدغياحي : متاقل من الجيوب التونسية خاض الكفاح المسلح ضد الاستعمار الفرنسي في بداية القرن . وسائد نقلاة البينيين للفرنسيين . أعدم عام ١٩٢٢ في ساحة قربة .

(٤) جبال غرابة : جبال مشهورة في الجيوب التونسية احنى بها الثوارون التونسيون اكثر من مرة .

(٥) هذه الحقة مشهورة في الجيوب التونسية وهي تعني :

الرجال الحقة الذين التحقوا به مصرعهم الموت !
لقد التحقوا بصاحب الحركة الضعيفة المشهور الدغياحي .

(٦) الطاهر الحداد صاحب كتاب «امرأتنا في الشريعة والجنسية» الذي دعا فيه الى ضرورة تحرير المرأة .

(٧) هو كتاب «محمد علي الحامي وجوانات الايام» لمحمد علي بلحولة . مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل ١٩٨٥ .

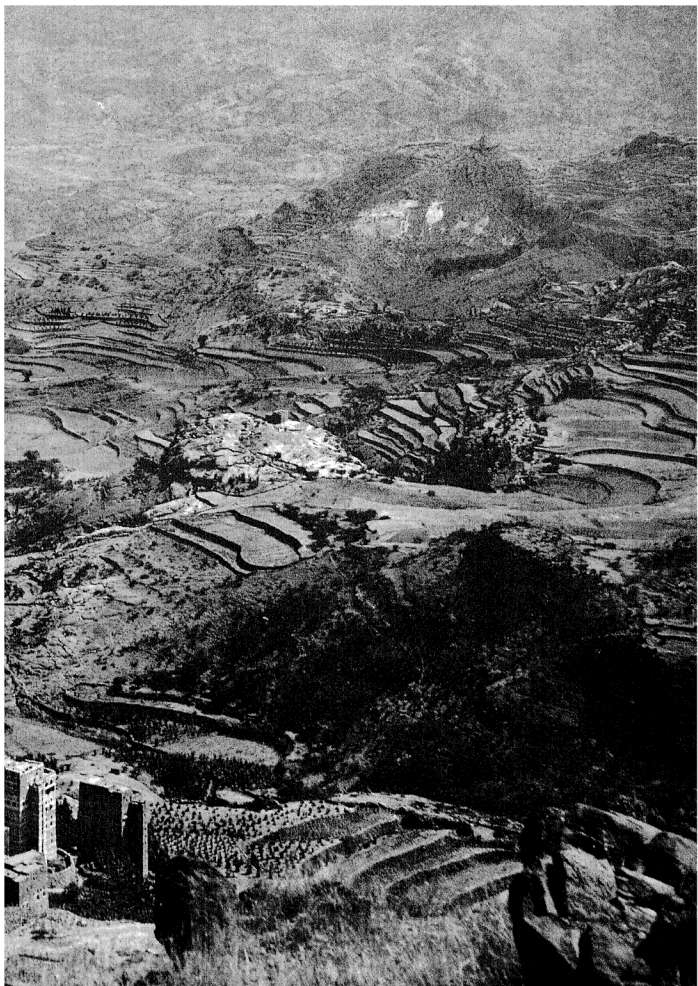
من حياته البرلينية استفادة كبيرة ، وأنه لم يعد فقط لينظم العمال ويؤسس نقابات وإنما ليغير العقول والمفاهيم ، وليساعد على تحرير الناس من التقاليد والأفكار القديمة .

وفي فترة قصيرة تمكن محمد علي الحامي وانصراره في توعية العمال والخرفين ، واقناعهم بضرورة الاتحاد للدفاع عن مصالحهم ومقرفهم . وهكذا اثبت للوجود أول منظمة نقابية في تاريخ تونس الحديث .

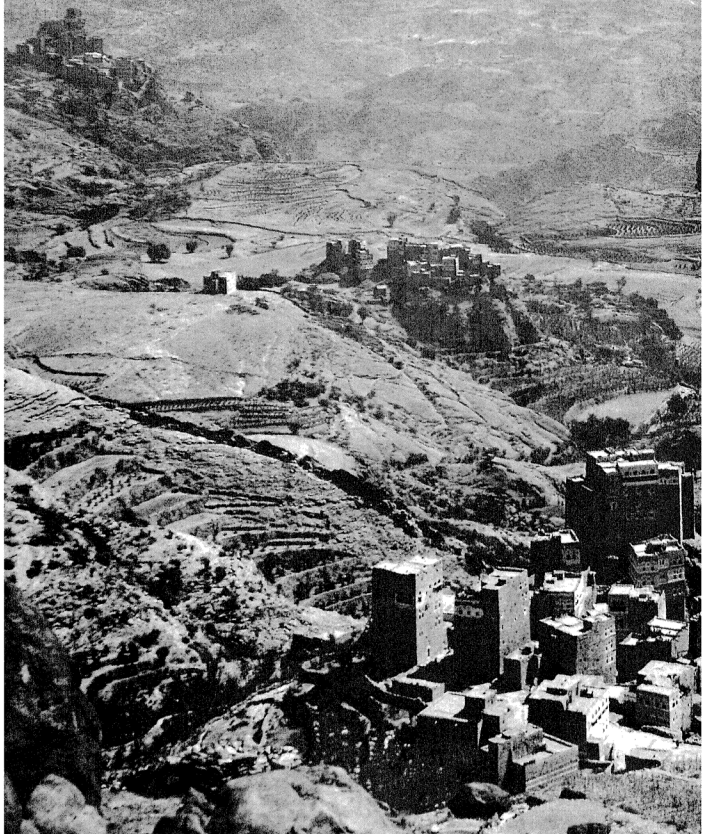
وسرعان ما بدأت السلطات الاستعمارية تعي خطر ذلك الشباب النحيل والغامض . وأرسلت وراءه جواسيس وخبرين لتابعة اعماله ومراقبة تحركاته وتسجيل اقواله وتصرفاته . ولم تزد طويلا في القاء القبض عليه والزج به في السجن صحة جمع من انصراره . وجميعهم وقفوا في قصص الانتهاء يوم ١٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٢٥ ، ووجهت اليهم تهمة التآمر على أمن الدولة . وبعد المفاوضات ، اصدرت المحكمة حكما يقضي بنفي محمد علي الحامي وانصراره لمدة تتراوح بين ١٠ و٥ سنوات .

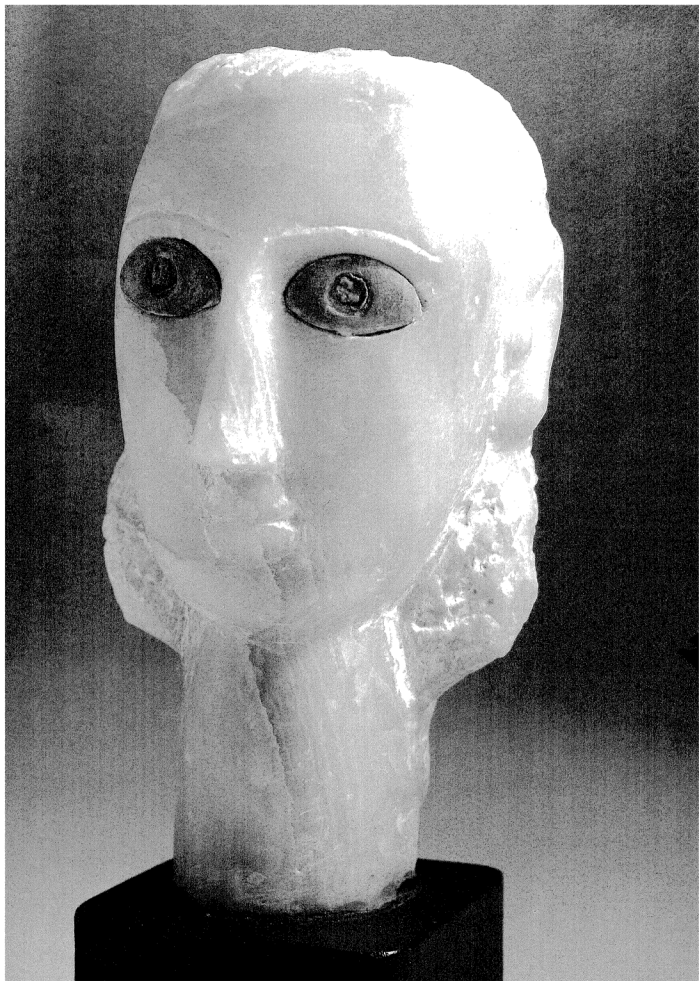
بعد ذلك تبدأ رحلة عذاب طويلة ومن جديد يعود الغموض ليلف شخصية محمد علي حتى النهاية .

توضع السلطات الاستعمارية الجباة المذكورة في باخرة متجهة الى نابولي بإيطاليا . وهناك يلقي البوليس القبض عليهم ويمضون اسبوعا كاملا في الايقاف . ثم تأخذهم السلطات الايطالية الى «بوستيميا» (Postumia) على الحدود الايطالية اليوغسلافية . وبعد ذلك اختار كل واحد منهم الطريق الذي يناسبه . وبخصوص محمد علي الحامي تقول الوثائق انه اتجه الى تركيا غير ان شرطة الحدود رفضت دخوله . ونحن لا ندرى بعد ذلك الى أين اتجه ، غير ان وثائق «الكاي دورساي» تقول ان الشرطة الفرنسية القت القبض عليه في مدينة طنجة يوم ٢٥ فبراير ١٩٢٦ . وهو يستعد للالتحاق بالمقاومة الريفية في جبال الأطلس . وبعد ذلك اقتادوه الى مرسيليا ، ثم اطلقوا سراحه . وقد يكون محمد علي طلب بعض المال من ابن عمه الذي كان يعيش في باريس في ذلك الوقت وركب الباخرة الى الاسكندرية . ويتواصل الغموض بخصوص حياة محمد علي بعد ذلك . غير ان بعض المؤرخين يقولون انه استقر في القاهرة وعمل سائقا عند احد الباشوات المصريين . غير انه رفض ذلك ليله حل السفير الفرنسي الى مقر اقامته بعد ان حضر حفلا في قصر الباشا المذكور . ومن جديد يهيم على وجهه في ارض الشرق . وتلفقه دروب الضياع في جلة حيث يعمل سائقا ومدرسا للغة الفرنسية . وفي يوم ١٠ ماي / آيار ١٩٢٨ اصطدمت سيارته بسيارة اخرى في الطريق بين مكة



رحلة الى اليمن السعيد





ملاحظات حول تاريخ اليمن السعيد

سببتيو موسكاني

جديرون خاصة بالتتويه لتتمتهم التجارة مع الشمال، وقد أسسوا مستعمرات هامة على طول الطريق الساحلي المحاذي للبحر الأحمر والمؤدي إلى فلسطين والبحر المتوسط. وقرب نهاية القرن الأول قبل الميلاد دأبت مملكة معين في مملكة سبأ التي كانت في الوقت نفسه تمد نفوذها في المنطقة نحو الجنوب.

وتبيننا النقوش المسبارية التي ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد أن زعماء سبأ وملوكها قدموا الجزية والهدايا للملوك آشور. ولابد أن هؤلاء السببيين كانوا مستوطنين في شمال الجزيرة العربية، وهذا يدل على ازدهار الدولة في مثل هذا الزمن المتقدم. وتدلنا أقدم النقوش السبئية على أن التقدم الحضاري بلغ في تلك الفترة شأوا بعيدا.

وقد تطورت دولة سبأ من حكومة دينية إلى حكومة مدنية. ففي عصر متقدم كان حكامها يتخذون لقب «المكرب» ومعناه «الكاهن الأكبر». وقرب نهاية عصر المكارية استقرت عاصمة الدول في مأرب، حيث كان يبنى سد عظيم للحكم في وادي أذنة

في الألف الأول قبل الميلاد ظهرت دول مختلفة في الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية، أهمها دول معين وسبأ وحضرموت.

والمملكة المعينية، في شمال اليمن، هي التي دار حولها أكثر الجدل فيما يتعلق بزمنها. ففي الماضي لم يكن يعرف على وجه اليقين أكانت متقدمة على مملكة سبأ أم معاصرة لها. ولكن الحفائر الحديثة وتطبيق العملية الراديوية تشير إلى تعاصرهما، ويبدو أنه يمكن تأريخ قيام مملكة معين بحوالي ٤٠٠ ق. م. والمعينيون



جنيبة يمنية تصاحب الرجل اليمني طول الوقت

رأس يعود تاريخه إلى المائة الأولى قبل الميلاد (متحف ميونخ الأثولوجي).

وتحويل مياهه للري. وبحوالي القرن الخامس قبل الميلاد تحولت الدولة الى حكومة دنوبية تعتمد على حكم أقلية تتألف من عدد صغير من الأسر العسكرية والأسر المالكة للأرض. وقام على رأس الدولة ملوك أخذ السبتيون في ظلمهم وسرعون نفوذهم شيئاً فشيئاً. وفي نهاية القرن الثاني قبل الميلاد اُضيف ملوك سبأ الى فيهم ملك ريدان، وأقيمت عاصمة جديدة في ظفار. وفي الوقت نفسه بدأت قبيلة حير تحتل مركز الصدارة في الدولة، فأخذ اسمها (Homeriteae) يزداد وروداً في المصادر اليونانية والرومانية الى جانب اسم السبتيين أو مكانه.

وقرب نهاية القرن الأول قبل الميلاد، كما قلنا، ذابت مملكة معين في مملكة سبأ. وكان هذا أيضاً مصر مملكة قتبان التي يقضى نظام التاريخ الجديد بوضع تاريخها بين ٤٠٠ ق.م و ٥٠٠ ق.م على وجه التقريب. ثم ذابت حضرموت بعد ذلك بزمان، وتاريخها حسب نظام التاريخ نفسه يقع بين ٤٥٠ ق.م والقرن الثاني الميلاد. وتذكر نقوش قتبان وحضرموت بعض المكارية، وهذا يؤدي بنا الى ان نفترض ان نظام الحكم الأصلي فيها كان مشابهاً لما عرفة السبتيون. وعندما حل القرن الثالث الميلادي كان السبتيون قد وحدوا جنوب الجزيرة العربية في دولة قوية واحدة، هي أكبر وحدة سياسية أنشأها العرب الجنوبيون.

ولم تلبث هذه المملكة أن تعرضت لهجوم عنيف شنه الآثوريون. وفي القرن الرابع احتلها الآثوريون زمناً، ثم استعادت حررتها بعد ذلك، ولكن الفقرة الداخلية التي ترجع أولاً الى دخول اليهودية والمسيحية بدأت تدفع البلاد في طريق الاضمحلال. وأخذ العنصر اليهودي يزداد قوة، فحاول ذو نواس، آخر ملوك سبأ، فرض اليهودية على شعبه، وبدأ يضطهد المسيحيين اضطهاداً عظيماً. دفع هذا الآثوريين المسيحيين عام ٥٢٥م الى غزو اليمن واحتلالها.

وقد استحكمت الأزمة في ظل الاحتلال الآثوري. فبينما كان الحكام المسيحيون يبنون الكنائس ويحاولون الاندفاع نحو الشمال كما فعل أبرهة (الذي يظن العلماء اليوم انه حكم اليمن مستقلاً عن إثيوبيا)، كانت البلاد تزداد اضمحلالاً، لحمود النشاط التجاري الذي كان يتوقف عليه بقاؤه الى حد كبير. وفي ذلك الوقت ازداد استعمال الطرق البحرية، فكانت هذه المنافسة كارثة على تجارة القوافل، وأخيراً أدى انهيار سد مأرب عام ٥٤٢م الى خراب أراضي الري البائدة، وسدد ضربة الموت الى ازدهار البلاد.

وقد انتهت سيادة الحبشة عام ٥٧٥م، وتلتها سيادة الفرس التي انتهت هي أيضاً بالفتح الاسلامي في أخريات حياة الرسول. تشتمل النقوش العربية الجنوبية على طائفة كبيرة من أسماء الآلهة وألقابها، وهذا يوحي بوجود نظام للآلهة بالغ التعقيد. ويزيد من المعصوبات التي يلاحظها الباحث الطابع المحلي لمعظم الآلهة، والاشارة اليها عادة دون ذكر اسمائها أو يذكر اسمها. ولكن لاربيب في وجود افكار عامة معينة يمكن تجميع جمهرة الآلهة حولها.

فقد ساد في جنوب الجزيرة العربية ثالث من الكواكب، رأبناه من قبل في أرض الرافدين: اله نجمة الصباح، واله القمر، واله الشمس. ومن الغلو أن نحاول، كما فعل نيلسن Nielsen في بحثه المشهور، إخضاع جميع الآلهة لحدود هذا الثالث، ولكن الحق أنه لعب دوراً هاماً في نظام الآلهة بجنوب الجزيرة العربية، وأن كثيراً من الآلهة المختلفة ليست سوى مظاهر له.

واسم اله نجمة الصباح معروف للمنطقة كلها: عثر، نظير عشتار لدى البابليين والآشوريين وعشترت لدى الكنعانيين. ولكن من الجدير بالملاحظة أن عثر العربي الجنوبي اله ذكر، بينما نجد نظائره في جميع الأديان السامية الأخرى مؤنثة.

ويتخذ اله القمر والشمس أسماء مختلفة. فاله القمر اسمه ود عند المعينيين، والمقه عند السبتيين، ورم في قتبان، وسين في حضرموت (كما في بابل). واله الشمس اسمه في قتبان وحضرموت شمس، الى جانب أسماء أخرى، فالاله صامت شمس قريب من الاسم شمس في أرض الرافدين. فهذه الصلات تؤيد أن كثيراً من العناصر الدينية في الشعوب السامية كان يتوقف بعضها على بعض.

والى جانب الآلهة المشتركة كانت هناك طائفة كبيرة من الآلهة الخاصة، تحمي بعض الأماكن أو القبائل بل الأسر أيضاً. ويشار اليها غالباً بالاسم بعلى الذي رأبناه من قبل لدى الكنعانيين، ومعناه «صاحب» أو «سيد». ولم تأت هذه الآلهة جميعاً من التراث القومي، فبعضها أخذ عن الشعوب المجاورة طبقاً لاستعداد عام بين العرب الجنوبيين يحدوهم الى النقل والاستيعاب، وهو استعداد يسر في مراحل متأخرة من تاريخهم دخول العقائد اليهودية والمسيحية.

وبين آلهة العرب الجنوبيين عدة آلهة لا أسماء لها، يتنهل اليها فرادي أو جماعات باسم اله أو آلهة مكان أو جماعة أو شعب ما.

ولنذكر خاصة ال، وهو اله سامي مشترك: ال لدى الأكديين (٣)، وال لدى الكنعانيين، والوهيم عند العبريين، واله عند العرب. وقد عرف البنيون أيضاً هذا الاسم، واستعملوه في الغالب اسماً عاماً بمعنى اله، وهو مدلوله الأصل حقاً. ولكنهم استعملوه أحياناً علماً على اله خاص، ويكثر ورودُه عنصراً في أعلام الأشخاص.

وأعلام الاشخاص التي تدخل في تركيبها أسماء الآلهة هي المصدر الاساسي لمعلوماتنا عن الصفات التي اعتاد العرب الجنوبيون اطلاقها على الآلهة في إبتهاحهم. فمن أشهر هذه الصفات: الأب والرب والملك والعزيز والعدل والأمين. ويزيد دين العرب الجنوبيين عبودية الانسان للآلهة، وهذه النظرة الدينية تستدعي دائماً أن يسعى الانسان للتفكير بعناية الآلهة.

وقد دخل دين العرب الجنوبيين كل صورة من صور حياتهم. ولما كانوا يرون أنه لا بد من حاية الآلهة لتوفيق كل حي ونجاح كل عمل، فقد كان للقبائل والأسر، بل للدول والمجاعات الزراعية والتجارية أيضاً، آلهة تحميها. وكانت تقام عند آلهة أي عمل له

ملكيات متحدة قوية. وكان رأس الدولة هو الملك، وقد تطورت سلطته في أكثر هذه الدول من سلطة دينية إلى أخرى دينية. وقد تتبع لنا جاك ريكمانز Ryckmans، د. يجرى التطور السياسي في مملكة معين، وكذلك في مملكة سبأ خاصة. ففي سبأ، تحت حكم المكارية، كانت القبائل جماعات دينية تظلمها حياة أختها الخاصة، وكان مجلس من الشعب يساعد الحاكم وفي وظائفه التشريعية. وفي عصر الملك ظل المجلس قائماً في أول الأمر، وكان ينفذ القانون في كل قبيلة موظفون قضائيون يتوارثون وظيفتهم ويتخذون لقب «كبير». وحوالي بداية العصر المسيحي أدى اتساع فتوح سبأ إلى ازدياد نفوذ هؤلاء «الكبراء» حتى أصبحوا طبقة في القبائل لها امتيازات خاصة وتمتلك من الأراضي واسعة، فاختلف مجلس الشعب، وتضاءلت سلطة الملك إلى حد كبير، فقام نوع من النظام الانقطاعي. وفي المسائل العسكرية، كانت السلطة في يد الحاكم دائماً على ما يبدو، فالنقوش التي تسجل الأعمال الحربية تقرر أن مثل الأعمال تمت بأمره، ولا يبدو أنه كان للمجلس الشعبية كلمة ما في هذا الصدد. ومن الناحية الدينية، يبدو أن سبأ، حتى في عصر المكارية، كان لها نظام من الحكم أقرب إلى النظام الديني مما لدى معين أو قتيبان، حيث كان للكهنة نشاط أبرز وأظهر.

ويبدو أن عرش الملك كان يرثه عادة الابن من الأب، فإن لم يكن للملك ابن خلفه أخوه. ومن النظم الخاصة بالعرب الجنوبيين ملك شخصيين أو أكثر معاً، وهو نظام أصله معني أو قبتياني، ولعل سبأ أخذت به بعد فتحها لقيتان، وكان يقضي بأن يشرك الملك معه في حكم الدولة ابنه الذي سيخلفه أو، في مرحلة متأخرة، بعض أبنائه ومنهم ولي عهده.

وكانت سلطة الملك والزعماء المحليين تقوم في آخر الأمر على ما يملكونه من الأرض، ومن هنا أقيمت إدارة الدولة على أساس من عقار الأرض، ووجهت إلى حد كبير نحو رعايته. وكان للمعابد أيضاً ضياعها التي كان لها فضل كبير في ازدهارها.

ولدينا بعض المعلومات عن الإدارة المالية. فكانت تفرض ضرائب على الصفقات التجارية وعقار الأرض، كما كانت هناك ضرائب خاصة لسداد النفقات العسكرية. ويبدو أن نسبة الضريبة لم تكن محددة، وإنسا كانت تختلف حسب المحصول وبعض العوامل الأخرى.

وكانت الحياة الاقتصادية لجنوب الجزيرة تقوم على التجارة الدولية، فضلاً عن مواردها الزراعية العظيمة. وكانت العطور العربية خاصة مشهورة في أنحاء العالم، وكانت تصدر بحراً أو على طريق القوافل المؤدية إلى أرض الرافدين وفلسطين. وفي الميادين التجاري، كان جنوب الجزيرة مركزاً أساسياً لتبادل السلع، وكان مرسى المحيط الهندي للتجارة مع البحر المتوسط. والقواعد التجارية التي أقامها السبئيون على سواحل الهند والصومال أتاح لهم احتكار تجارة الذهب والبخور والمر وأخشاب الزينة التي تصدرها تلك المناطق إلى الشمال.

أهمية ما احتفالات لاسترضاء الآلهة وتكريس ذلك العمل لها. وكانت المعابد والقبائل، والقوانين ومراسيم الدولة، وأنصاب القبور، توضع كلها في رعاية الآلهة، وكان على الآلهة أن تنتقم من كل من ينتهك تلك الأشياء أو يندسها.

وفي مثل هذه البيئة كانت للمعابد أهمية قصوى. فكانت تخصص لها العشور ومصادر دخل أخرى لتوفير أموال كافية لتعديدها. وكان تعهد المعابد واجب الكهنة، وكانوا كثيرين على نظام حسن. وربما كان من وظائفهم أيضاً إصدار النبوءات باسم الآلهة، ولكن معلومنا في هذا الصدد لا تكفي للعلم اليقين. وكان بين العاملين في المعبد أيضاً بغايا مقدسات، أكثرهن إماء اجنبيات يوهبن للآلهة ويهبن أنفسهن تماماً لخدمتها. وكانت تقدم قربانين من حيوانات مختلفة، كالثيران والغنم، في أعداد كبيرة غالباً. وكانت هناك أيضاً قربانين من غيـردم، كقربان الشرب وتقديم البخور.

ومن العادات التي تدعو إلى الاهتمام البالغ عادة الحج إلى الأماكن المقدسة، وكان لها نظير في وسط الجزيرة العربية صار فيها بعد من فرائض الاسلام. وليست هناك أدلة صريحة على عادة الطواف بالأسماك المقدسة، ولكن هناك دلائل تشير إلى أنها وجدت في صورة لا تختلف عن الصورة التي سادت بين سائر العرب.

ولا بد أن الصلوات الخاصة، أي الصلوات التي لا ترتبط بوظائف دينية أو بأوقات محددة، وكانت منتشرة انتشاراً واسعاً. وكان الغرض منها قبل كل شيء استجداء حماية الآلهة حتى يتحقق الخصب للأرض، والرواج للتجارة، والخلاص من الفقر والمرض. وكان انتهاك مبدأ الطهارة يستدعي الاعتراف علناً به، وكانت الطهارة ركناً هاماً من أركان الطقوس. ولدينا أمثلة لاعتراقات أدلت بها قبائل لآلهة مختلفة، واستغفار على الملأ أداء بعض الملوك.

وقد وجدت في قبور جنوب الجزيرة حلى وكؤوس واختام وأشياء من كل نوع. وهذا يشير إلى الإيـان بالبحرية الأخرى، ولكننا هنا أيضاً لا نستطيع التحقق من تفاصيل تلك العقيدة. فالحياة الدينية لجنوب الجزيرة تتميز في مجملها بطابع حضارة مستقر باللغة الشأن لها شخصيتها البارزة واستقلالها في نطاق بيئتها. وهي تختلف عن أحوال العرب البدوي في الشمال اختلافاً كبيراً من عدة وجوه.

وليس من اليسر رسم صورة للحياة السياسية والاجتماعية لشعوب من ترك لنا من الوثائق سوى نقوش نذرية وتذكارية. ولكن النقوش التذكارية كثيرة إلى حد يكفي لاستخراج نتائج معينة. هذا الصدد تتسم بالخطية والحذر. هذا إلى أن انقسام المنطقة إلى دول مختلفة يعني إنه على الرغم من التجانس الكبير في تلك المنطقة لا يلزم للتساليج التي تكونها عن دولة ما أن تصلح لدول أخرى دون استثناء أو تعديل.

وقد اتخذ التنظيم السياسي للدول العربية الجنوبية صورة

أهميته الخاصة، وكان لأحد هذه السدود، وهوسد مأرب أهمية قصوى لازدهار البلاد السياسي. وقد كشفت الحفائر في منطقة تمنع (عاصمة قتبان: المترجم) عن شبكة كاملة من السدود تتصل بها قنوات وصهاريج لتوزيع المياه الري لرقعة واسعة من البلاد.

٣- تصميم معبد مأرب

وكانت أبنية القبور موضع اهتمام خاص. وقد كشفت غرف دفن وأضرحة وأنصاب، عليها في الغالب صورة للمميت ونقش تذكاري. وكشفت البعثة الأمريكية الأخيرة في تمنع قبورا نحتت في الصخر، وفيها اثنا مما يوضع في القبور وكثير من النقوش. ولم يبلغ فن النحت مبلغ الفن المعباري. والنمط السائد في فن النحت تماثيل صغيرة لأشخاص توضع في المعابد قرباين ندور. وقد كشفت بعض التماثيل البرونزية الجميلة، كالتماثيل الذي كشف أخيراً في مأرب، وهو نحت ثلاث أقدام ارتفاعاً، ويمثل رجلاً يلبس على ظهره جلد أسد، وكتماثيل الحصان الذي تضمه الآن مجموعة دميترون أوكس Dumberton Oaks Collection في واشنطن، ولكن هذا الفن عامة من نمط غليظ بدائي. وهذا يصدق أيضاً على الصور المحفورة، ففي صور البشر المحفورة نجد عامة أن الجسم في وضع مواجهة، القسامين في وضع جانبي، والوجوه ضعيفة الأداء. ويعبر عن تفاوت المكانة بين الأشخاص المرسومين باختلاف الأحجام، كما في أرض الرافدين. ولم يستطع أولئك الفنانون التغلب على مشاكل الأبعاد، فكتفوا بوضع صور الأشياء بعضها فوق بعض أو أزاء بعض. ونجد كالعادة أن الصور المحفورة التي تمثل الحيوانات والأزهار والأكايل والرسوم الهندسية أكثر ترفيقاً، فهناك مثلاً في المتحف البريطاني صورة محفورة لجمل بالغة الروعة.

وكان العرب الجنوبيون عظمي التوفيق في صناعة القطع الفنية الصغيرة. فالكتاب اليونان والرومان ترموا بأنائيد الشتاء على الكنوس والأوعية التي صنعها السييون من الذهب والفضة. ولم يصل إلينا سوى القليل من هذه الأشياء لسوء الحظ، وإن كان هذا أمراً طبيعياً، ولكن لدينا مثلاً مصباحاً برونزياً بدعي، على سطحه أعلى رسماً في صورة جدي يفتق. ثممة دبابيس والمعد من البرونز عليها صور معارك بين حيوانات وأهنة تذكر بالاختام البابلية والآشورية.

وقد صنعت قطع كثيرة من الحلي بالغة القيمة من الذهب الذي كان وافراً في جنوب الجزيرة. وسكت أيضاً نقود كثيرة، اقتداء بالعالم اليوناني الذي نجد أثره في تلك النقود نفسها. وفي الحتام تقول أن فن جنوب الجزيرة، كسائر مظاهر الحضارة التي ينتمي إليها، يدل على مرحلة من الحضارة تروع المرء بتقدمها، قامت مزهرة راسخة في أحوال مستقرة، وكانت مستقلة عن بقية أنحاء الجزيرة بل مختلفة عنها من عدة وجوه.

ولهذا تخللت المصالح والحاجات التجارية سياسة العرب الجنوبيين بأسرها، وقد استطاعوا بلوغ بلاد قسبية دون أي فتح سياسي كبير، بفضل استيطانهم وتجارتهم.

ولم ينقب علماء الآثار بعد في جنوب الجزيرة العربية على نطاق واسع كما فعلوا في مناطق أخرى من الشرق القديم. فالعابد الكبيرة والصور البدئية التي حفظ الكتاب القدامى ذكرها لا يزال جانب منها يوقد خرائب تحت تلال الرمال التي تغطي منذ قرون بقايا تلك الحضارة البائدة.

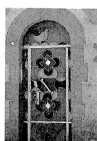
وجنوب الجزيرة غني بالجرانيت، وهو حجر رائع للبناء نحتت منه كتل مربعة كبيرة وأعمدة قوية. وكان في الزمن القديم غابات واسعة يؤخذ منها الخشب. وقد استعمل الأجر أيضاً، وكانت تصنع منه كثيراً تركيبات على هيئة درج في رؤوس الأعمدة وفي السقوف تذكر بنظائرها في كثير من مباني أرض الرافدين.

ومعلوماتنا عن الفن المعباري في جنوب الجزيرة العربية تسمح لنا، رغم نقصها، بوصف بعض خصائصه. فالكتل الحجرية الكبيرة كانت تسوى وتركب بعضها إلى جانب بعض في دقة بالغة يصعب معها رؤية أماكن الوصل. وكانت الأعمدة توطد في نقر في قواعدها وطيولها والجدران مسلة عامة، ولكننا نعرف أنها كانت تبنى أيضاً بسطوح مضلعة. وهذه الطريقة توحى بأنها تأثرت بمباني الأجر، وهي في جملتها تذكر بالفن المعباري البابلي. وكانت تبدل عناية كبيرة في تزيين الجدران والأعمدة بفصوص من الذهب أو غيره من المعادن التي كان جنوب الجزيرة غنياً بها.

وكانت الأعمدة المربعة والأعمدة الأسطوانية تستعمل كثيراً. وكانت تنصب مليشات Monoliths طويلة، كتبت عليها نقوش غالباً. وكانت رؤس الأعمدة مربعة في الغالب، وكان للعمود أحياناً عدة رؤوس يعلو بعضها بعضاً على هيئة درج، وكانت الأعمدة نفسها مربعة أو لها ثمانية ضلوع أو ستة عشر ضلعاً.

وكانت العابد يضاهي أو مربعة في تصميمها. فمن الأمثلة الطبية للنمط الأول معبد مأرب الكبير الذي كشفته البعثة الأمريكية. وقد عثر على سوره، وهو يضاهي تقريباً، كما نقب تنقياس دقيقاً في مبنى بني في السور فيها بعد. وهذا المبنى وجه فيه ثمانية أعمدة مربعة، ومدخل من ثلاثة أبواب جنباً إلى جنب يؤدي إلى رواق، وفي هذا السور باب واحد يؤدي إلى ساحة المعبد نفسها. ومن الأمثلة الطبية للمعابد المربعة التصميم معبد خور روري في عان، وقد كشفت البعثة الأمريكية أيضاً. وجدران هذا المعبد بالغة السمك (تبلغ عشرة أقدام أو أكثر)، وفي داخل الجدار الشمالي بنيت ثلاثة جدران أخرى. وليس هناك سوى مدخل واحد، وهو ضيق أقيم في الجدار الشرقي. وفي ساحة المعبد مذبحان وبئر ركب فيها صهيح.

وقد كشفت أيضاً عدداً المباني الدينية أبنية أخرى بنيت من كتل الحجرية أو من الأجر: قلاع من عدة طوابق، وأسوار، وأبراج. وكان بناء السدود فرعاً من الفن المعباري السديني له



الرحلة الأوروبية الاولى الى اليمن السعيد

رحلة كارستن نيبور الى بلاد العرب (١٧٦١ - ١٧٦٧)

ذلك قَرَّ المخطوطون ان تكون هذه الرحلة الثانية مستقلة تماما عن الاولى وإن يكون هدفها الرئيسي والوحيد البحث العلمي، ويعود الفضل في ذلك الى شخصيتين من ابرز شخصيات ذلك العصر، هما البروفسور «يوهان هارفيغ برنستورف» من جامعة جوتينجن والاخر «يوهان هارفيغ برنستورف» ممثل ألمانيا في كوبنهاجن والمسؤول عن سياسة الدانمارك الخارجية.

كان «ميشائيلس» مستشرفا ومن ابرز علماء دراسة الانجيل في عصره. ومن المرجح أنه كان قد قرأ كتاب «نوردن» وأنه كان عارفا باهتمام ملك الدانمارك «فريدريك الخامس» ومستشارية بالعلوم والفنون، ولهذا عرض على «برنستورف» فكرة تنظيم رحلة علمية الى اليمن أو «اليمن السعيد» وهي التسمية المتعارف عليها في ادبيات العصر العلمية والمأخوذة عن التراث الروماني. وقد كتب «ميشائيلس» قائلا: «ان هذا البلد غني بالثروات الطبيعية التي لاتزال مجهولة عندنا، وتصل جذوره التاريخية الى قديم الأزل. كما تختلف لهجة عن اللهجة العربية لسكان المناطق الغربية. اليس من المتوقع إذن ان تساعدنا لهجة بلاد العرب الشرقية على زيادة معرفتنا بأهم كتب العالم القديم الا وهو الانجيل؟».

وسرعان ما استجاب «برنستورف» لهذا الاقتراح وظل متمسكا به حتى بعد ان تغير شكله تماما بناء على استشارة العلماء الآخرين. وقد تقرر ان تنطلق البعثة من القاهرة وليس من مركز التبشير الدانماركي في «ترانكيا» على الساحل الجنوبي للهند، الشيء الذي ربط بينها وبين رحلة «نوردن» وربطاً مباشراً. وقد كلف المشتركون فيها بجمع المعلومات لا بهدف دراسة الانجيل فقط وإنما التركيز على احتياجات العلوم الطبيعية والجغرافية. وقام «ميشائيلس» بوضع قائمة من الاسئلة العلمية طالبا من اعضاء البعثة توفير الاجابات الوافية عنها. وقد ظهرت هذه الاسئلة في كتيب بعنوان «اسئلة موجهة الى مجموعة من رجال العلم الداهيين في مصر الى بلاد العرب بأمر من صاحب الجلالة ملك الدانمارك».

وشملت القائمة اسئلة مفصلة عن مجالات العلوم المختلفة منها التاريخ والتاريخ الطبيعي وعلوم اللغة. وصدر الأمر الملكي

لم تكن المعارف التي اكتسبتها العلوم الأوروبية خلال القرن السابع عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر حول البلاد الغير الأوروبية وحول حصارها، وشعبها ذات أهمية كبيرة ذلك انها اعتمدت بالاساس على رحلات أساطيل الدول الكبرى التي كانت تبحث عن طرق تجارية جديدة. تشهد على ذلك كتب الرحلات والاسفار الى تلك القارات المجهولة للمؤلفين من الانكليز والفرنسيين والهولنديين ولا تصبح المعرفة هدفا مستقلا بذاته تنظم من أجله الرحلات الطويلة الا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ومن اهم هذه الرحلات تلك التي تعارف الدانمركيون على تسميتها آنذاك بـ «الرحلة العربية». وهم يعنون بها رحلة نظمت الى بلاد اليمن خلال الفترة الفاصلة ما بين ١٧٦١ و١٧٦٧ والتي قام بتمولها البيت المال.

إن الخلفية لهذه الرحلة التاريخية هي فلسفة التنوير واجتهاداتها في جمع وحصر المعارف الانسانية بشكل منهجي وكانت هذه البعثة هي ثاني محاولة دانماركية بهذا الصدد. اذ أن الاولى كانت الرحلة التي قام الضابط البحري فريدريك لودفيلك نوردن (١٧٠٨-١٧٤٣) عام ١٧٣٧ بهدف التخطيط لعلاقات تجارية واسعة النطاق مع امبراطورية الحبشة. وكانت نتيجتها الاساسية العديد من الخرائط والمعلومات عن بلاد مصر. ولو نحن القينا نظرة على الاوضاع السياسية في ذلك الوقت، لوجدنا ان التفسير الاساسي لهذه العوامل الجديدة هو التطلع الى بناء العلاقات التجارية ذلك ان الحروب ضد الامبراطورية العثمانية كانت قد انتهت بمقد معاهدتي السلام مع القسطنطينية في عام ١٧١٨ و١٧٣٩ التي وافقها تحييد دول الساحل في شمال افريقيا وذلك ابتداء من عام ١٧٥٠. وهذا ما ساعد على اكتشاف أسواق، وطرق تجارية جديدة، وجعل جمع المعارف عن هذه العوالم المجهولة ضرورة اقتصادية ملحة.

ظهر كتاب «نوردن» حول «الرحلة الى مصر وبلاد اثيوبيا» في عام ١٧٥٥ اي بعد وفاته بسنوات عديدة. وقد تميز بخراطة الدقيقة لوداي النيل، وهو ما ساعد على التخطيط للرحلة العربية بشرط ان تكون هذه الرحلة الثانية تكملة لرحلة «نوردن». وبعد

سبعة أشهر (أي من ١/٧ إلى ١٧٦٠/٦/٣٠) وذلك بسبب قوة الرياح المضادة مما اضطر السفينة إلى العودة إلى ميناء هلسنغور مرة أخرى. ويقول نيبور في مذكراته: «عاني بحارتنا من الأحوال الجوية السيئة معاناة شديدة حتى إن بعضهم لاقى حتفه، ومرض منهم حوالي ٣٠ شخصاً». ولم تبدأ الرحلة فعلاً إلا في ١٠ مارس، لتسير في البداية في الاتجاه الخاطئ بسبب الرياح. وفي القسطنطينية استقل أفراد البعثة سفينة إيطالية طاقمها تركي وصلت إلى الاسكندرية في ٢٦ سبتمبر عن طريق رومس، وكانت السفينة تحمل معها جواز مرور وخطاب توصية من السلطان. كان أفرادها قد غيروا ثيابهم الغربية واستبدلوها باللباس الشرقي لأن



الثياب الأوروبية «كانت ستكون موضع تساؤلات كثيرة، بل من المحتمل أنها كانت ستثير علينا تكمكات العامة من الناس»، كما يقول نيبور.

وقام نيبور في الاسكندرية بالعديد من عمليات المسح لاقى خلالها بعضاً من الصعاب وهو يقول (لاحظ أحد التجار الأتراك أنني أوجه الأسطرلاب باتجاه المدينة، فدفعه فضوله الشديد إلى النظر من خلاله. وقلق جداً عندما رأى برجاً يقف رأساً على عقب. وقد نتج عن ذلك ظهور اشاعات تقول بأنني أتيت إلى الاسكندرية لأقلبها رأساً على عقب. وكان هذا موضع حديث

كارستن نيبور بلباس عربي.

إذاً يبدأ الرحلة في ١٥/١٢/١٧٦٠ على قاعدة أسئلة ميشائيلس والاقتراحات المقدمة من طرف العلماء الآخرين. وقد نصت الفقرة العاشرة من القرار الملكي على مايلي: «على أعضاء البعثة أن يكونوا في غاية الأدب مع سكان بلاد العرب وعليهم ألا ينقضوا تعاليم دينهم أو يقللوا من شأنه حتى في ما بينهم وبين أنفسهم». ولم يكن السبب في اتخاذ هذه الاحتياطات هو المشاكل الدبلوماسية التي يمكن أن تنتج عن مثل هذا السلوك وإنما كان التسامح الذي كان الشعور المهيمن في ذلك الوقت والقاعدة المتبعة في كل المعاملات وخاصة مع الشعوب والأمم الأخرى.

ويتحدث «نيبور» عن مناقشة دارت بين أعضاء البعثة وبين أحد العاملين في السفينة التي نقلتهم من القسطنطينية إلى الاسكندرية فيقول: «تبين لنا من خلال النقاش أنه مسلم مؤمن بدينه إيماناً قوياً. وعندما حاول أحد أعضاء بعثتنا إقناعه بصحة الديانة المسيحية نهض واقفاً وقال: «الذين يؤمنون بغير الله ليسوا إلا إثرائاً وهمراً» ثم خرج. وقد ذكرنا هذا الرجل البسيط بأنه علينا ألا نخوض في مثل تلك النقاشات وإن ترك كل واحد يعتقد أن دينه هو الأفضل».

شارك في «الرحلة العربية» خمسة أشخاص هم:

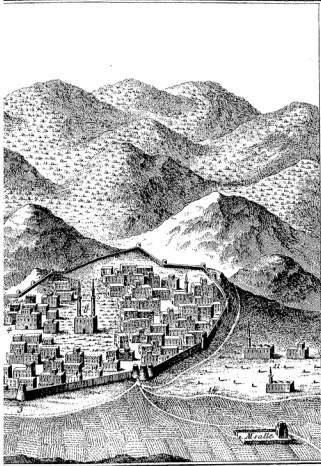
«فون هافن» -الدانماركي (١٧٢٧-١٧٦٣) وهو من تلاميذ «ميشائيلس»، والسويدي «بيترس فورسكال» (١٧٣٢-١٧٦٣) الذي درس اللغات الشرقية لدى ميشائيلس أيضاً وذلك خلال الفترة الفاصلة بين ١٧٥٣ و ١٧٥٦. وفي نفس الوقت كان تلميذ عالم النباتات السويدي الشهير كارل فون لينيه. وقد كان مختصاً في العلوم الطبيعية، و«كارستن نيبور» (١٧٣٣-١٨١٥) الذي كان طالباً يدرس الرياضة التطبيقية على يد إبراهيم غوتيلف كيسترن في جوتنجن، وقد أهله دراسته لعلم الفلك على يدي الفلكي المشهور «يوهان توبياس ماير» (١٧٢٣-١٧٦٢) إلى الاضطلاع بمهمة رسم الخرائط. وعند لقائه الأول برينستورف في مدينة كوبنهاغن، كلفه هذا الأخير بإدارة الشؤون المالية للبعثة. وكان أعضاء البعثة الآخرين هم الطبيب «كريستيان كرامر» (١٧٣٢-١٧٦٣) والرّسام «باورنغفاند» (١٧٢٨-١٧٦٣) وخادم عسكري سويدي اسمه بروجرين (١٧٩٣-٤).

بدأت البعثة رحلتها على ظهر الباخرة العسكرية «غرونلند» من ميناء كوبنهاغن. وفي ٢٠ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٧٦٧، لم يعد سوى كارستن نيبور، وهو الوحيد الذي تبقى على قيد الحياة من بين كل أعضاء البعثة.

خُط سير الرحلة من القسطنطينية إلى القاهرة استغرقت الرحلة من كوبنهاجن إلى القسطنطينية حوالي

اياهم الابحار ومرورو بأفريقيا الجنوبية.
وطيلة الرحلة في البحر الأحمر، كان «فورسكال يصيد
الحيوانات المائية ويعطيها لزميله «باورنفانند ليرسمها. كما انه ارسل
من جلة مجموعة من النباتات والحيوب واشياء اخرى من بيتها
أسماك واصداف.

من جدة الى اليمن
أبحرت البعثة من جدة في مركب صغير الى ميناء لحية في



اليمن. ثم سارت في طريق البر الى بلدة بيت الفقيه التي وصلتها
يوم ٢٥ فبراير/ شباط ١٧٦٣. وفيها اقامت مايقرب الشهرين.
وقد توطدت الصداقة بين «نيبور» و«فورسكال». وهذا ماسهل
عليهما القيام برحلات عديدة سويا، رحلات إلى سهول تهامة
والى الجبال المحيطة بها. وقد كتب نيبور قائلاً: «كنا نستأجر
حمارين تركبهما يبنينا يظلل صاحبهما سائرا على الاقدام وراةا فهو

الناس في كل مكان وحتى في بيت الحاكم).
اضطر نيبور الى التوقف عن المسح لهذا السبب معوضاً
برحلات متعددة الى الدلتا. وفي الطريق الى القاهرة قام بمسح
لأحد فرعي النيل ورسم له خارطة. كذلك شرع فورسكال في
تدوين ملاحظاته العلمية وفي جمع عينات مختلفة من الحيوانات
والنباتات وقد اقامت البعثة عامين في القاهرة وذلك بعد وصولها
اليها في ١٠ نوفمبر. وكان السبب في هذه الإقامة الطويلة،
الصراعات الداخلية بين اعضاء البعثة انفسهم، والتي ادت الى
استفحال الخلافات بينهم وإلى بروز الكثير من المشاكل التي
عرقلت اعمالا كثيرة.

ورغم ذلك استمر العمل طبقا لمواد القرار الملكي. وقد
واصل نيبور عمليات المسح، ودرس في القاهرة فرع النيل الثاني
المؤدي الى رشيد، ووضع خارطة دقيقة للمدينة، وقاس ارتفاع
الاهرامات، محصلاً نتائج لا تختلف إلا بنسبة ٠,٥٪ عن النتائج
الحديثة. كما نسخ بعضاً من النقوش المهرغليفيّة كانت في اولى
من أمكن قراءتها. أما فورسكال فقد اضاف الى مجموعته حوالي
١٢٠ نوعاً جديداً، وجمع المئات من الحبوب، واشترى فون هافن
٧٢ غطوطاً ورسم باورنفانند صوراً معبرة عن الحياة اليومية من
خلال الادوات المستخدمة والمأكينات والملابس الشعبية والآلات
الموسيقية.

من القاهرة الى جدة

رحلت البعثة في ٢٨ أغسطس ١٧٦٢ بصحبة قافلة الحج
السنة من القاهرة الى السويس لتبحر منها الى جدة المرفأ الوحيد
المؤدي الى مكة.

وكان افراد البعثة قد تطيعوا أكثر فاكتر بأسلوب الحياة الشرقية
خلال اقامتهم في القاهرة. وقبل الاقلاع من السويس حاولت
البعثة البحث عما كان يسمى في اوروبا بجبيل (المكاتب)
والمقصود عليه في القرار الملكي، وهو جبل كان العلماء يتوقعون
العثور فيه على معلومات جديدة بخصوص رحلة بني اسرائيل في
صحراء سيناء، غير ان بحثهم باء بالفشل، وتمكن نيبور من نسخ
بعض النقوش النبطية من القرن الاول الميلادي.

أبحرت البعثة في ١٠ أكتوبر على ظهر سفينة من سفن
الحجاج تاركة السويس الى جدة، وواصل نيبور دراساته الفلكية
سرا في الطابق العلوي من السفينة. وشكلت هذه الدراسات مع
ما لاحظته حول الشعب المرجانية القاعدة الاساسية لأول خارطة
علمية للبحر الاحمر. وقد كان الجزء الشمالي منه مجهولاً لدى
الرحالة الأوروبيين، ولذا فانهم لم يكونوا يتجاسرون على السير فيه
ابعد من جدة شياً. وكانت هذه الخارطة هي الهدية التي قدمها
«نيبور» الى قبطان الكليزي في فترة لاحقة. وهي التي اعتمدها
البريطانيون في إقامة طريقهم البريدي من اوروبا الى الهند، مجنبا

تخطيط شبال اليمن من اعداد كارستن نيبور (١٧٦٣)

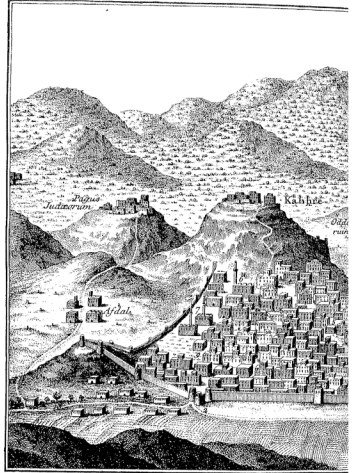
ويبدو من خلال مذكرات «نيبور» ان أعضاء البعثة كانوا على مايرام على الأقل في بداية اقامتهم في اليمن السعيد . كما كانوا يتمتعون بحرية الحركة وبلا احساس بالامان . ولم يلاقوا من السكان نفورا مثلما حدث لهم في تركيا او في مصر . وقد كتب «نيبور» يقول ان على الرحالة ان يعلم بان الرحلة متعبة . غيرهاها ليست اكثر ارهاقا من تسلق الجبال .

وقد بدأت المشايخ بعد ترك بيت القفيه . ومنها حادثة «غشاء» المضحكة والمبكية في نفس السوت ، والتي وصفها «نيبور» في مذكراته بالتفصيل : بعد وصول البعثة مساء ٢٤ نيسان / ابريل الى غاكان من الضروري تفتيش المشايخ الذي وصل من لحية مباشرة ويحضر حاكم المدينة . ورغم ان أعضاء البعثة طلبوا البدء في التفتيش بادوات المطبخ وبالاغطية حتى يتمكنوا من ان يناموا بعد ذلك ، فان التفتيش بدأ بادوات العمل . وكان من بينها برميل صغير به اسك من الخليج العربي . وقد رجا السيد «فورسكال» المفتش بالا يفتحوا البرميل لانه كان مثلما بالكحول ولان رائحة الاسك التي فيه ربما تكون غير محتملة على الاطلاق . غير ان المفتش اصر على فتحه وبعد ذلك اخرج منه الاسك وقلب فيه بواسطة عصاه الحديدية كما لو انه كان يتصور العثور على اشياء ثمينة بداخله . وبرغم نوايا أعضاء البعثة ، فان المفتش قلب البرميل رأسا على عقب . وهكذا امتلا المكان برائحة الكحول والاسك العفنة . اما القواقع التي كانوا قد لقوها بحرص شديد فقد زععت لفائفها ، ومزق البعض منها بواسطة العصا الحديدية المدببة . وربما لم يكن العرب يتصورون ان بإمكان انسان عاقل جمع مثل تلك الاشياء ولهذا فانهم تصوروا ان أعضاء البعثة احضروها بهدف السخرية من الموظفين بل ومن الحاكم نفسه . واعتقد اخرون ان هناك اشياء ثمينة مخبأة بينها وان أعضاء البعثة قد سحروهم بحيث انهم لم يعودوا قادرين على رؤيتها . وبدأ الحاكم غير مبالي تماما بما يحدث . وفي نهاية التفتيش احضر صندوق مخصص لنقل القناني كان فورسكال يحتفظ فيه بنماذج من الشعاب المختلفة والتي كان قد قام بتحضيرها . وإثار هذا أيضا استغراب المفتشين ودهشتهم . وعندئذ قال أحد عبيد الحاكم اوخدمه ان الفرزنج قد جاؤا الى اليمن لتسميم المسلمين . وحتى تلك اللحظة ، لم يصدر عن الحاكم اي غضب او اي سخط . كان يبدو مشفقاً الى حد ما على أعضاء البعثة ، غير انه لما سمع ان الناس قد يكونون في خطر حتى ثارت ثائره وهاج وباح وقال : «والله لن يبق هؤلاء الناس ليلة واحدة في مدينتنا» . ويضيف فورسكال في تقريره الى لبيته : لكنه - اي الحاكم - غير رايه في النهاية بعد ان اقنعه اصداقائه بواسطة الهدايا الثمينة بحسن نواياه . وهكذا انجلي عنه الاعصار الذي اجتاحت نفسه . ان الجبل هو بالفعل اساس لحياقات كثيرة» .

وراحت المصاعب تشتد امام أعضاء البعثة . وسرعان ما واجهتهم الملايا التي راحت تحصدهم الواحد بعد الآخر .

مرشدنا وخادمتنا بل وفي كثير من الاحيان مترجم لنا وكنا نحن قد اصبحنا من ذوي اللحي العربية المهيبة وترتدي ثياباً طويلة بحيث كان شكلنا شقيقاً الى حد كبير . وحتى لا يشك احد في اننا اوروبيون ، اطلق كل منا اسماً عربياً على نفسه ، وجعلت احتياطاتنا هذه صاحب الخساريون بأننا لسنا اوروبيين واننا مسيحيون من الشرق .

وقد واصل نيبور عمليات المسح خلال رحلاته الى غا وعز وصنعاء راسياً بذلك القاعدة لانجاز عمله الكبير الثاني : خريطة



اليمن ، اساس كل الابحاث الجغرافية عن المنطقة لفترة المئة سنة اللاحقة . كذلك استمر فورسكال في جمع النباتات . من بينها اصناف متعددة تجهلها العلوم الاوروبية جهلاً تاماً ، كما استطاع ان يجد شجيرة البلسم العربي التي يستخرج منها بلسم مكة ، الشهيرة في ارض كنعان وفي الشرق كله . ولم تكن اوروبا تعرف الى اي نوع من النباتات ينتمي حتى ذلك الحين .

مصاعب

توفي اثنان من اعضاء البعثة الرعودتها في نهاية نيسان/ ابريل ١٧٦٣ الى منطقة الساحل. وهما فون هافن (٢٥ مايو/ أيار ١٧٦٣) في غا وفورسكال (١١ يوليو ١٧٦٣) في جريم. وقد ذهبنا ضحية نوع خاص من الملاريا اشتهر اليمين بشراسته. وكان فورسكال في طريقه من جريم الى صنعاء عندما باغته المرض. وبحاول نيبور ان يخفي حزنه على صديقه فورسكال بالذات وراء تقريره الموضوعي عن الحادثة: «لقد حزنا حزناً شديداً على فقدانه ذلك انه كان اكثرنا ايجاداً للغة العربية بل وللهجات المختلفة بسبب اختلاطه بعمامة الناس اثناء جمعه للنباتات. وفي بعض الاحيان كان يقوم بدور المترجم لنا. وكان مهتماً شديداً الاهتمام بتسهيل امور الرحلة علينا، الشيء الذي اقنعني بانه كان اكثرنا صلاحية للسفر الى بلاد العرب. وقد تعود على اسلوب حياة السكان الاصليين بسرعة مدهشة. وهذا شيء ضروري للغاية بالنسبة لمن يريد قطع بلاد العرب مستفيداً ومستمتعاً في آن واحد.

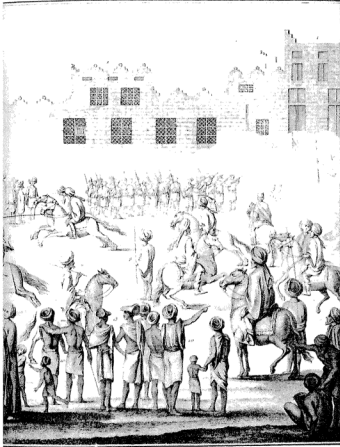
وقد قرر اعضاء البعثة الاخرين بعد زيارة العاصمة صنعاء ان يغادروها الى غا ليستقلوا بعد ذلك المركب الى بومباي، محاولين تجنب الساحل اليمني الموبوء بالملاريا، قاطعين بذلك رحلتهم التي كان من المتوقع ان تمتد عامين او ثلاثة. وسرد لنا نيبور اسباب قرارهم ذلك قائلًا: «استقبلنا في صنعاء استقبالاً طيباً للغاية بل ان كثيرين من اهل البلد الحزين حاولوا اقناعنا بالبقاء بينهم وذلك بترك المراكب البريطانية تقف بدوننا. وكان بوندا ان نستجيب الى دعوتهم تلك. غير ان وفاة زميلينا جعلتنا عاجزين عن مواصلة دراستنا الطبيعية واللغوية. اما انا فقد كنت زرت من قبل العدد الاكبر من مدن المملكة الصغيرة كما اتي وضعت خريطة اساسية لليمن. وخوفاً من تكرار المصاعب والعراقيل والمضايقات، ومن الامراض التي يمكن ان تصيبنا من جراء تغير الجواء والماء وبسبب الفروق بين السهول والجبال قررنا الاقلاع الى الهند بهدف تأمين حياتنا ومذكراتنا واوراقنا».

اقلعت السفينة من غا في ٢١ اغسطس، لكنها كانت قد تأخرت: ففي خلال السفر اودت الملاريا بكل من باورنفايند وبريجرين، وتبعها كرامر في فبراير ١٧٦٤ في بومباي، ولم يبق الا نيبور، مرهقا ومريضاً واستغرق وقتاً طويلاً للشفاء من المرض، ونراه يقصر ذلك على انه انذار وتحذير الهي يقول: «أكد آيأس من رؤية أوروبا مرة أخرى. لقد قررت ان التزم البقاء على قيد الحياة. واذا ما أتت أيضاً، فمن يوصل الأوراق والوثائق الى أوروبا. اني اخاف من اننا لن نصل على الاطلاق. وخاؤي هذه هي التي جعلتني أقرر السفر في احدي السفن المبحرة من بومباي الى لندن». ويستغل نيبور فرصة وجوده في الهند ليوزر في مارس

١٧٦٤ مرفاً صبرات التجاري في شمال الهند. ويكتب في مذكراته: «كنت مريضاً جداً الى درجة اني لم اتمكن من الشروع في رحلة العودة. وهكذا اضطرت للبقاء في بومباي طيلة موسم الأمطار. وقد قررت ان اعود عبر الطريق المرسوم لي والذي يمر من البصرة وذلك حالما اتعافى. لقد ارسلت الان كل العينات وكل الوثائق التي جمعناها خلال رحلتنا. وانا الان اشعر بالطمأنينة».

رحلة العودة

غادر نيبور بومباي بعد ان اقام بها اكثر من عام بأكمله وكان



ذلك في ديسمبر ١٧٦٤، ورحل شهلاً عن طريق عان والخليج العربي، وفي ميناء بوشهر الفارسي شاهد الاستعدادات قائمة على قدم وساق لتسيير قافلة الى شيراز، فانتهاز الفرصة ليحقق حلماً قديماً من احلامه وهو يقول: «بالرغم من رغبتي الجارحة بالعودة الى أوروبا الا انني لم أرغب في ان تفوتني فرصة السفر الى شيراز ومشاهدة اطفال برسيفولس علي مسيرة يومين منها وهكذا قرّرت الرحيل مع القافلة في ١٥ فبراير الى داخل البلاد، وبقيت

قارين حربية عربية.

برا عبر العراق حتى بغداد التي وصلها في يناير ١٧٦٦. وانضم هناك إلى عدة قوافل نقلته إلى الموصل ومنها إلى حلب التي غادرها إلى قبرص بناءً على تعليمات القنصل برنستوف لكي ينسخ نقوشاً كان يعتقد أنها فينيقية الاصل. وانتهاز فرصة وجوده في المنطقة ليزور الأماكن المقدسة، فقاد طريقه مرة أخرى إلى حلب ماراً بدمشق في أغسطس ١٧٦٦، وقد اقام فيها حتى نوفمبر ليغادرها بصحبة قافلة إلى القسطنطينية، التي وصلها بعد شتاء قارس في فبراير ١٧٦٧، وهناك رسم خارطة للمدينة كان المرض قد منعه من رسمها خلال زيارته الأولى لها قبل أكثر من خمس سنوات. وبعدها أظفره للقارة الآسيوية عائداً إلى أوروبا عن طريق البر، عبر بولندا وشمال ألمانيا، وقد توقف في مدينة جوتنجن وزار بعضاً من أسرته في قرية التنبورج وهي القرية المجاورة للقرية التي ولد فيها. ووصل كوبنهاجن في ٢٠ نوفمبر ١٧٦٧، وبادر إلى تنقيح ملاحظاته ونتائج تأملاته خلال الرحلة ليعدها للنشر في كتاب.

وتقلد في عام ١٧٧٨ منصب سكرتير الاقليم المسؤول عن جمع الضرائب واستقر في بلدة ميلدورف حيث توفي في عام ١٨١٥.

وعندما عُرض عليه ان يُرفع إلى مصاف النبلاء رفض العرض قائلاً: (من يقبل مثل هذا العرض لا بد وأنه يحس بأن أصله ليس بالنبل الكافي).

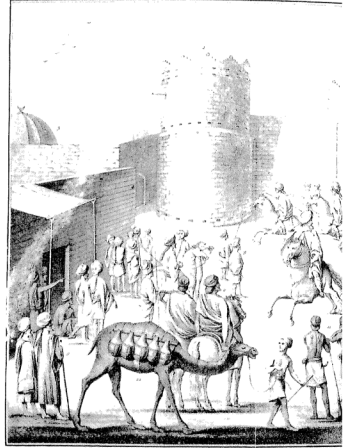
نتائج الرحلة

بإمكاننا تصنيف نتائج الرحلة إلى مجموعتين: هناك الانبياء العينية التي جُمعت خلالها وأُرسلت إلى كوبنهاجن، أصناف مختلفة من الحيوانات والنبات، مع عدد من المخطوطات العربية والعربية وهناك المشاهدات المدونة كتابةً والرسومات والخرائط، والكتب التي طبعت على أساسها.

نرى ان البعثة قد تمكنت من الاجابة على العديد من الاسئلة المطروحة عليها قبل مغادرتها الدانمارك. تطلعا الانبياء على الاستفسارات اللغوية في مقدمة كتاب نيبور (وصف بلاد العرب) بينما نجد الاجابات على الاسئلة في المجالات العلمية المختلفة متناثرة في نفس الكتاب. وظهر فيما بعد ان بعض نتائج الرحلة لم ابعاد تاريخية، مثال الخرائط التي رسمها نيبور ونسخه للخبط المساري، وايضا انتحازات فورسكال في علمي النبات والحيوان. اما المخطوطات المقتناة من فون هافن فرضعت الاساس لمجموعة المخطوطات الشرقية في المكتبة الملكية، حيث ان هذه المجموعة لم تكن تحتوي سوى على عدد بسيط من المخطوطات قدمت كهدايا للمكتبة ومازال جزء كبير من مخطوطات فون هافن موجودا بها ويستخدم لاغراض البحث العلمي.

مرتديا ثيابي الأوروبية التي كنت قد اتيت بها من الهند في طريقي إلى برسيوليس، لكنني قاسيت الامر من السفر مع القافلة بتلك الثياب القصيرة الضيقة).

امضى نيبور ثلاثة أسابيع في أطلال ذلك القصر الملكي، وكان الاسكندر الأكبر قد اشعل فيه النيران انتقاماً من غريمته امبراطورية فارس القديمة. وهنا يقوم نيبور بثالث انتحازاته العظيمة، فينسخ كل النقوش المكتوبة بالخبط المساري بدقة فائقة جعلت من نسخته قاعدة لفك رموز هذا الخبط بعد سنوات قليلة.



غير ان هذا الانجاز كان على حساب صحته ذلك انه لم يراع انعكاس الشمس على المرمر الشيء الذي اتعب عينيه وتسبب في اصابته بالعمى في الشيخوخة. ويقول ابنه بهذا الصدد: (ان صورة هذه الاطلال انطبعت في ذهنه طيلة العمر، فكانت هي الجوهرة بين كل الحجارة الثمينة التي شاهدها في رحلته).

وصل نيبور في اغسطس ١٧٦٥ إلى البصرة وتابع رحلته منها

فقرات من القرار الملكي والتعليمات الموجهة فيه الى أعضاء البعثة

أمثلة من الأسئلة المصاغة من
ميشائليس وإجابات نيبور عليها في كتاب
(وصف بلاد العرب)

السؤال رقم ٣٢:

بما أن بلاد العرب هي موطن الجراد فمن المؤكد أن
السروفيوسور فورسكال سوف يزودنا بوصف دقيق للجراد العربي
حتى ولو لم نطلب منه ذلك صراحة.

لكن رجائي هو مراقبة الظواهر التالي ذكرها بالتحديد: هل
يؤكل الجراد؟ وإن نعم فأي أنواع منه هي الصالحة للأكل؟ وما هي
طريقة إعداده؟ أي الأجزاء التي تؤكل؟

نيبور: ان الجراد موجود بكثرة في بلاد المشرق، وإن كان ليس
بالكثرة التي نتخللها في أوروبا. (سؤال ميشائليس رقم ٣٢)،
ويأكل العرب الجراد الرحال، وكان السيد فورسكال قد ذكر أن
لهذا النوع وجود في ألمانيا كذلك. وإذا ما بعض الأوروبيين
يستغربون أكل العرب الجراد، فإن هناك من العرب من يستغرب
حب الأوروبيين للمحار والجمري وسرطان البحر.

نشاهد الجراد يعلق على قتل ويبيع في الأسواق في جميع المدن
العربية من باب المندوب وحتى البصرة. وطرق إعداده مختلفة،
وأينا غريباً من مصر قذف بالجرادة على القمح المشتعل عندما
طلبنا منه أن يأكلها على مشهد منا فلما نضجت أمسك بكل جرادة
من رأسها وساقها الأماميتين وأكلها في مرة واحدة. وإذا ما كان
الجراد كثيراً، فإن العرب يحرقونه أو يجففونه أو يطبخونه ويأكلونه
بالمالح.

السؤال رقم ٣٩:

يترد ذكر الذهب العربي في الكتاب المقدس ولدى المؤرخين
الأغريق، ولذا نرجو التأكد من:

(١) هل هناك كميات كبيرة من الذهب حتى الآن في بلاد العرب؟
أم أن هذه البلاد نفتقر إلى الذهب كما يظن البعض من أصدقائي
بحيث أن ثرواتها المشهورة في الماضي كانت قد أتنها من الهند أو
أفريقيا ولم يكن مصدرها علياً؟

(١) يجب أن ندوم إقامتكم في اليمن السعيد من عامين إلى
ثلاثة أعوام وعليكم أن تركزوا أولاً وقبل كل شيء على إجابة
اللغة العربية والتحدث بها، فبدون هذا لن تمكثوا من تحقيق
الأهداف المحددة من قبلنا.

وعليكم القيام بالتمارين الخاصة باللغة العربية خلال
رحلة البحر ليسهل عليكم اكتسابها وبذلك يخف عنكم ملل
رحلات البحر.

(٢) على كل مسافر أن يضع لنفسه كراسات خاصة به يدون فيها
يومياته ولا يركز على ذاكرته فقط وعليه أن يكتب ملاحظاته في
نهاية كل يوم وإذا ما صعب عليه فعله ان يدونها عند نهاية كل
أسبوع.

(٣) من واجب كل أعضاء البعثة أن يتحلوا بأقصى درجات الأدب
نجاه سكان بلاد العرب، وعليهم ألا يجادلوسهم في دينهم أو
يسخروا منه حتى في ما بينهم وبين أنفسهم.

كما عليهم أن يتركوا جانباً كل ما قد يضايقهم، وعليهم
الحذر كل الحذر من القيام بأي شيء قد يوحي للمسلمين غير
المتعلمين بأن هدفهم هو انتقيب عن الكنوز أو ممارسة السحر أو
جمع المعلومات التي فيها أساءة إلى البلد. كما أن عليهم ألا
يستثيروا غيرة العرب المتأججة أبداً ولا يتصرفوا بما قد اعتادوا عليه
من تحور أوروبي نجاه النساء وبالرغم من أن هدف هذه التعليمات
لا يمكن أن يكون التنبيه إلى المبادئ الأخلاقية العامة فإننا نحرص
عليهم تحريماً باتناً إقامة أية علاقة حب غير شرعية مع النساء سواء
كن متزوجات أو غير متزوجات، مما قد يوجب نيران النار في صدر
الشرقي.

كما عليهم أن يتجنبوا الشتام حتى ولو استفزوا ولا يدافعوا
عن أنفسهم بالضرب في حالة وجودهم تحت حماية السلطة المدنية
ذلك أننا نعلم خطورة مثل هذا التصرف في البلاد التي يسود فيها
دين الاسلام. حيث يعاقب على شتم المسلم بالاعدام.

وبما أن مثل هذا التصرف سيضر بأعضاء البعثة الآخرين
فإننا لا نحذر منه فقط وإننا نمنع مثل هذا التسرع الأرعن منعاً
باتاً. ومن يتصرف ضد هذه الأوامر ويصاب بالضرب من جراء
ذلك، فستتركه يواجه مصيره وحيداً ولن نلزم أعضاء البعثة
الآخرين بالاهتمام بأمه لما في ذلك من خطر عليهم.



تمثال معادي كارب - تمثال برونزي
لاميرسيا (السادس قبل الميلاد).
ويعتد هذا التمثال أحد أهم التماثيل
المجسدة للحضارة البينية القديمة
بالنسبة للإنسان. وقد أعادوا تصميمه
في المتحف المركزي ببنيس».

السبت ١٧ آذار/ مارس ١٨٨٨ : قررنا أن نبدأ رحلة العودة اليوم وكان يصحبني إلى جانب الأمير أخوه الشريف محمد والشيخ ، وخادمي صالح الجفوي وعلي السعودي . وكنت متكرراً في زي فقيه أو قاض مسلم . وهو دور كنت قد استعدت له استعداداً جيداً من قبل . فلقد كان هناك مواطن خيرومؤمن من مواطني صنعاء يتسلل كل ليلة إلى منزلنا في الحفاء ، ودون أن يلاحظه الخدم ، ويعطيني دروساً في الصلاة والوضوء وإمامة الصلاة ، والقاء خطبة الجمعة . كما كان يعلمني الحيل والأعداء المختلفة المسموح بها للمسلم لكي يرفض الامامة أو اللقاء خطبة الجمعة . وأحضرت شيئاً فشيئاً قطع الثياب المختلفة اللازمة ودون أن يثير انتباه احد . وكانت ملابس شيخ في غاية من التواضع اختارها من خزانة ملابس . لكن حذارى ! فلا يظن احد ان قميص دور مثل هذا يمكن دون موافقة البعض من المواطنين من الخاصة . اقول هذا لكي لا يعتقد من يري نفسه في أوروبا عالماً أو متبحراً في اللغة العربية انه باستطاعته لعب دور المسلم البسيط . فكل كلمة وكل فكرة وكل حركة وكل تعبير يشي بحقيقة الأوروبي .

الخميس ٢٢ مارس ١٨٨٨
تجولنا بعد الظهر لأول مرة في القرية بهدف نسخ بعض النقوش . وكنا قد اتفقتنا على أن يطلب مني الأمير أو السيد نسخ النقوش كلها طالعهم واحد منهم . وعندما قلت أنني لا أقد هذا الشيء ولا معنى ما هو متفوش أمامي ، دفعني السيد قسراً إلى الحجر المنشود قائلا : « انسخ فافيه ، فإ لغير آخر أحضرناك معنا إلى مأرب ، أما معنى هذا النقش فسوف أشرحه لك ان استحسنت ذلك » . وكانت هذه الاحتياطات ضرورية فعلاً في الأيام الأولى ، لأن سكان القرية كلهم والبدون من المناطق المحيطة بها أتوا افواجاً ليشاهدوا ما يُصنعه السيد الفقيه . ورفع الآباء الأنبياء على اكتافهم ليروضوا فضولهم ، وحتى النساء تجتمعن في البيوت المحيطة ليشاهدن من الشرف والوافاء هذا المنظر العجيب .

ومن البديهي أن تجتمع غفيراً من البشر كان ملتفا حولي يزاحمني امام الأحجار . فلم تكن مأرب قد عرفت مثل ذلك من قبل . ولقد تأسفت شديد الاسف لاني تعلمت في شبابي التاريخ الطبيعي مضطراً ، ذلك اني لم استمد من دراسية أية معلومات تقنيدي في الحياة اليومية . وكنت كنت معجبا بالطبيعة التي تعطي دورسها عن طبخ خاطر لكل شيء من ثيابان البود . وكنت اراقبهم بأحاسيس هي خليط من الحجل والتحسر ، فحتي أصغرهم كان يعرف اسم كل شجرة وكل شجيرة وكل عشب وكل عصفور يطير فوق رأسه ، بل كان يعلم اسم كل نهر يعبه وكل حجر يمتد فيه . وكثيراً ما فكرت في ما بيني وبين نفسي :

« أيا الهي ، ما كنت نمن علي بأن أمضي أنا أيضاً شبابي الذهبي في أحضان الطبيعة الحرة الجميلة حتى أظل محتفظاً باسم كل عصفور وكل زهرة .

فيبور : قد يكون الاغريق وجدوا الكثير من الذهب في بلاد العرب سابقاً أما حالياً هي خالية تماماً منه وكان إمام اليمن قد أمر منذ سنوات قليلة بصبك عملة صغيرة من الذهب . لكن الذهب المحلي لم يكن ليافي بهذا الغرض فصهرت عملات أجنبية لتنفيذ الأمر الملكي

ويطالعنا الذهب في المدن التي تزدهر فيها التجارة وموطنة ليس فقط الحبشة وإنما هناك كميات تأتي من البندقة عبر سوريا وبالسذات عبر مصر وبها تؤدي أثان البرن والأقمشة والتوابل القادمة من الهند ، حتى أن العرب كثيراً ما سألوني ان كان سكان البندقة هم الوحيدين الذين يمتلكون مناجم الذهب في أوروبا . بل أن من بينهم من يعتقد ان هناك سراً ما لانتاجه .

السؤال رقم ٨٦ :

لولا حظ الملازم نيبور بأن الرجل العادي في داخل بلاد العرب يعطي النجوم أسماء غير مذكورة في معاجنا فالتنا نرجومنه وتدوينها والتعمن في تصورات العرب وخرافاتهم الدائرة حول النجم المعني بالأم .

نيبور : إن الضرورة المحضة وافتقاده للساعة علماً الشرقي العادي مثله في ذلك مثل الفلاح الأوروبي ان يُراقب مدار الكواكب خصوصاً وأنه ينام في الغراء . وهو مثل الأوروبي العادي يمنع النجوم أسماء مختلفة عن أسماها العلمية . وليس في لغة العرب أسماء للأبراج الساقية والنجوم تشابه تسمياتها العبرية مثلاً نعرفها من سفر أيوب .

رحلة ادوارد جلازr إلى اليمن السعيد : رحالة في ثياب قاض

ولد ادوارد جلازr عام ١٨٥٥ في النمسا . وكان والده يرغب في ان يعمل في مكتب للتجارة حينما بلغ السادسة عشر من عمره ، غير ان جلازr فضل الذهاب إلى براغ لحوالة دراسته فيها على ان يكسب قوته اليومي باعطاء الدروس الخاصة . وفي تلك الفترة شرع في تعلم اللغات الأجنبية المختلفة . وفي يوم من الأيام شاهد مجلة في إحدى المقاهي بها وصف لرحلة ليفنجستون ، فقرّر ان يصبح بدوره عالماً ورحالة وان يتعلم اللغة العربية وان يدرس علم الفلك والعلوم الطبيعية والرياضيات وعلم مسح الأرض (التوبوغرافيا) . وفي عام ١٨٨٢ ، رحل إلى تونس ليصقل لغته العربية ، وغادرها في نفس العام متوجها إلى اليمن عبر مصر وجده .

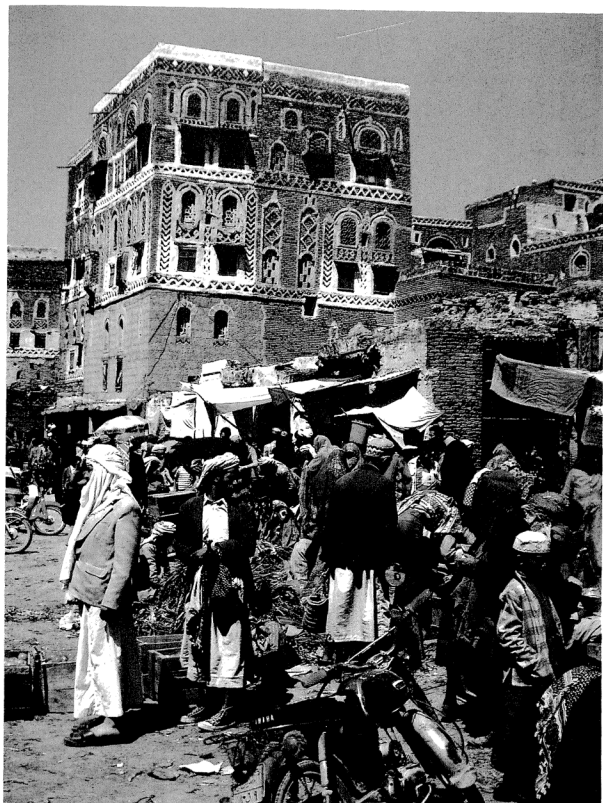
كان جلازr رحالة وصحفيّاً في نفس الوقت . وقد قام بدراسات أثرية ولغوية وتولوجية مهيد بها الطريق لكل الذين رحلوا إلى اليمن في ما بعد . ومازالت المعلومات الجغرافية في اعماله مهمة إلى حد اليوم . ونشتر هنا مقتطفات من وصفه لرحلته إلى صنعاء ومأرب .



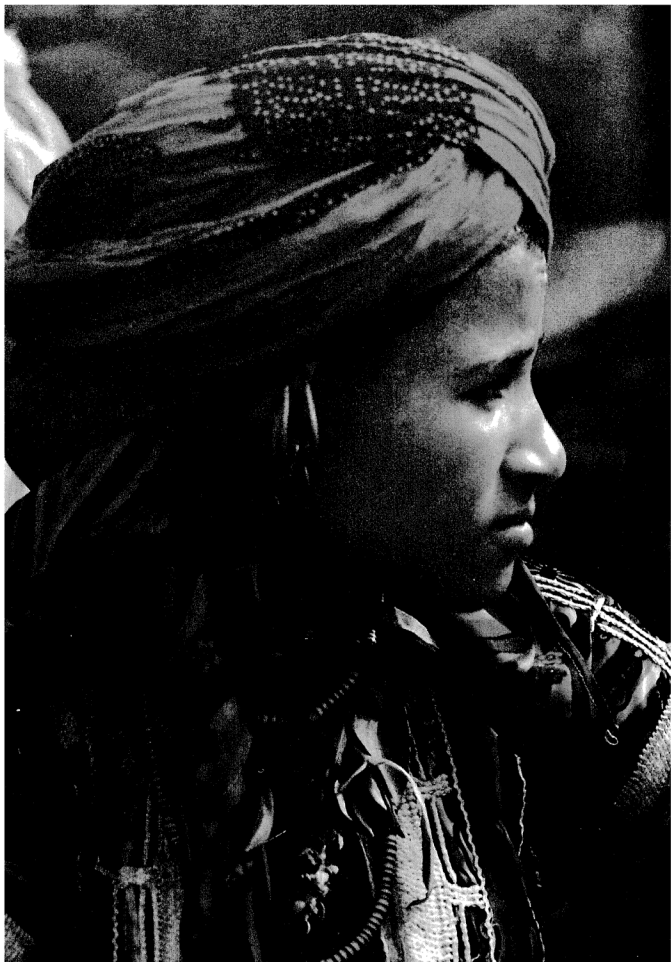
اندوارد جلّالز (١٨٥٥-١٩٠٨).



هارمن يورشارت الذي كان أوّل من اعدّ صوراً عن بلاد اليمن صحبة معلمه العربي احمد بن محمد الشراي . (صتعا ١٩٠٧)
وقد قتل صحبة جمع من رفاقه خلال رحلته الثالثة إلى اليمن.



سوق في إحدى شوارع صنعاء القديمة



انقاذ مخطوطات قرآنية نادرة

علماء الاثار الالمان يشرفون على العملية

تلك الخزانة فوجدوها مكتظة بأوراق الرق والجلود المكتوبة بالخط الكوفي، وقد تسربت إليها بعض مياه الأمطار من الكوة المفتوحة والتي تدخل منها الحمام فتعشش فيها، ووجدت هناك ثعابين كثيرة كانت تعيش في تلك الخزانة وتضطاد الحمام والعصافير فقتل العمال منها ماظفروا به منها وفر منها ما فر. وقد أصلح الخلل الذي كانت المياه تتسرب منه الى الجامع، وأعيد وضع الخزانة الى ما كان عليه بعد أن اخذ القاضي حسين بن احمد السياغي مجموعة من تلك الأوراق القرآنية ما ملا خمسة أكياس أو أكثر من ذلك وأبقاها في

اليمن السعيد غني بالمخطوطات العلمية النادرة. ويتأكد هذا من خلال عملية العثور على أربعين ألف مخطوط قرآني. يروي تفاصيل هذه العملية، القاضي اسماعيل الاكوع، رئيس الهيئة العامة للآثار ودور الكتب قائلاً:

«فلما تولى القاضي حسين بن احمد السياغي وزارة الأوقاف في العهد الجمهوري سنة ١٣٨٥ هجرية (١٩٦٥م) نزلت أمطار غزيرة فخرسقف الجامع من المكان الذي تقع فيه الخزانة فأمر بافتقاد السقف، ومعرفة ما يحتاج الى إصلاح فيه ففتح عمال البناء



الجامع الكبير في صنعاء

تتناقص شيئاً فشيئاً على يد من أيقن عليها أمرت بإعادتها إلى الحزانة الغربية في الجامع الكبير.

ولما زرت تونس في نيسان سنة ١٩٧٩ رتب لي المعهد القومي للآثار زيارة مدينة القيروان لمشاهدة جامعها الشهير: جامع عقبة بن نافع رضي الله عنه، وشاهدت فيه مجموعة منتقاة مما في حوزته من المخطوطات القرآنية الكوفية قد نُصِّدت ووضعت في أمكنة بارزة فقلت في نفسي: ولماذا لا ينتمى بها تملك اليمن من هذه الثروة العظيمة! »

شرح علماء الآثار الألمان في المساهمة في عملية إنقاذ المخطوطات الواردة ذكرها عام ١٩٧٦ وذلك بعد اطلاع الأستاذ «البرخت نوط (Albrecht Noth) عليها خلال زيارة له إلى صنعاء . وتمّ ذلك بموافقة قسم العلاقات الثقافية في وزارة خارجية ألمانيا الاتحادية اعتناءً على اتفاقية بين الحكومة الألمانية والجمهورية العربية اليمنية بخصوص ترميم وتبويب المخطوطات العربية . وقد امتضت الاتفاقية بين الحكومتين المذكورتين يوم ٢٧ مارس / آذار ١٩٨٠ .

تحتوي المخطوطات على ٧٥٠ مصحفاً مكتوبة على الرق وعلى ٣٥٠ مكتوبة على الورق . ويؤكد علماء الآثار أنها تعود كلها إلى الخمسة القرون الأولى من الإسلام . بل إن البعض منها ربما يكون من أولى المصاحف التي ظهرت . وجعلها مزوّقة ومزخرفة بالذهب وبمواد نادرة .

والآن وبعد ستة أعوام من العمل ، بدأ علماء الآثار المكلفون بعملية الترميم والانقاذ يفتقرون من نهاية الأشغال التي استعملوا خلالها أحدث أساليب التقنية الحديثة . ومن الأكيد أن عملية الترميم هذه وكما يؤكد ذلك علماء آثار مرموقون ، سوف تضيف معلومات جديدة حول المخطوطات العربية الإسلامية ، كما أنها سوف تعمق معرفتنا بأشياء لاتزال مجهولة في مراحل من التاريخ العربي الاسلامي .

ومعلوم أن علماء الآثار الألمان لهم تقاليد تاريخية عميقة بخصوص المخطوطات العربية الإسلامية وخاصة المصاحف القرآنية . ويعود الفضل في ذلك إلى الترجمة الممتازة التي قام بها «رودي باراب» (Rudi Paret) للقرآن .

وسوف يجاول العلماء المشرّفون على عملية الترميم العثور على مصادر المخطوطات المذكورة خاصة وأنها مكتوبة بخطوط مختلفة .

أول من أشرف على عملية إنقاذ المخطوطات المذكورة كان د . جارت بويين (Gerd Pui) من جامعة «ساربريكن» (Saarbrücken) الذي عمل بمساعدة عدد من الأساتذة اليمنيين . ويعنده كلف السيد «هانس غاسبار غراف فون بوتشار» (Hans-Caspar von Bothmer) الذي ظل مشرفاً على العمل إلى حدود ١٩٨٦ . والآن تشرف على مواصلة أعمال الترميم والتوثيق السيدة أوريسلا درايبهولتس (Ursula Dreiholtz) التي تعمل في جامعة «ساربريكن» (Saarbrücken) .

خزانة الأوقاف ، ولكن أمينها السابق غير الأمين تصرف بها بالبيع لواء جمع نوادر المخطوطات والتحف ، وخسرت من مواطنها فتفرقت في بلدان العالم ، وقد رأيت بعضها في إحدى المكتبات في دول الغرب (٢٦) ثم مرت سنون وحصل في الجدار الغربي للجامع خلل فيه إذ تزعزعت أحجاره عن مواضعها قليلاً إلى الخارج ، ويقال لثل هذه الحال في صنعاء : كرش الجدار ، فلما خشي عليه من السقوط بعد أن كاد ينقض عزمته وزارة الأوقاف في عهد وزيرها القاضي علي بن عبد الله العمري سنة ١٣٩٢ هـ



مخطوطات قرآنية نادرة

(١٩٧٢م) على نقض هذا الجدار تحت اشراف الهيئة العامة للآثار ودور الكتب التي سارعت قبل نقضه بتصويره وترقيم أحجاره بحجارة حجرية لمعرفة مكان كل حجر عند إعادتها وقت البناء إلى موضعها . وكان لا بد من إزالة تلك الخزانة التي تقع في مقدم سطح الجناح الغربي قبل البدء بنقض الجدار ، وحينما رفع سقفها وجدت أكوام كثيرة من صفحات القرآن الكريم فكلفت المهندسين احمد حسين السباغي مدير المتحف آنذاك بجمعها وحفظها في أكياس كبيرة فملئت قرابة عشرين كيساً ، وأمرت بنقلها إلى المتحف الوطني لحفظها حتى نبث في أمرها ، ولما عرف ان كمياتها



نقش الصورة مسجد. ويمكننا
ان نشاهد الباب والمحراب وبعض
الاشجار والزهور. ونعزو هذه
الصورة النادرة الى العصر الاموي.

في العلاقة بين الشفوي والمكتوب

هاينز شلافير

تكون إلى جانب الكسب المائل للعيان خسائر اقترنت بالتقنية الحديثة قيات ملموسة ومحددة أيضاً.

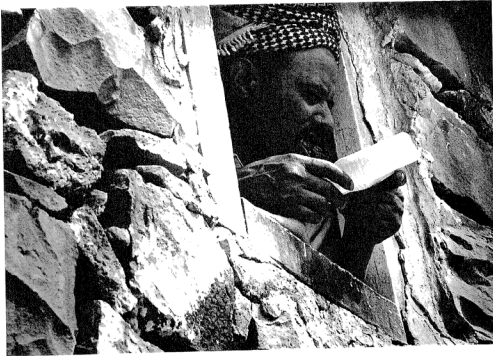
لقد أتى أفلاطون، الذي حفظ في كتاب محاورات استاذة سقراط التي تلقاها منه شفويًا، بأول نقد لهذا الوسط «الكتابة» فقدم بذلك أول نظرية عن «نتائج الكتابة ذات الأثر الثقافي». ويسرد أفلاطون في مؤلفه فيدروس «Phaidros» اعتراضات سقراط الأربعة على الكتابة:

١- أنها تضعف الذاكرة نظراً لاعتداد الذاكرة على دعامة خارجية بوساطة دلائل غريبة.

٢- تقدم نصاً صامتاً لاغير/لنفترض أن بوسعك الاعتقاد أنها، أي الكتابات، تستطيع الكلام كما لو أنها تفهم شيئاً، بيد أنك تستنطق هذه الكتابات، وأنت شغوف بالتعلم عما تفصح عنه، وبهذا تتضمن الكتابات الشيء ذاته دائماً). وهكذا تسلب القارئ

تساعد التغييرات على نقل الأفكار. ومنذ أن تراكمت الدلائل والتكهنات التي تشير إلى أن الكتابة ستفقد مكانتها البارزة بوصفها تقنية الاتصال، اتجهت الأنظار بشكل لافت للنظر إلى نشأة الكتابة ونتائجها ذات الأثر الثقافي.

إن من يراقب اليوم عن كتب ما يتفق على التكنولوجيا لأحلال الاشارات الرقمية والرموز الصورية على الحروف الكتابية، ومن يراقب أيضاً النتائج الحتمية الثقافية لاستبدال الكتابة والقراءة بالرؤية والسمع المنقولين بطريقة اصطناعية يهتدي، بصورة أسهل من العصر الذي كانت فيه الثقافة الحرفية أمراً بديهياً، إلى تحليل تلك المرحلة التاريخية التي يبرز من خلالها الانتقال من الحالة الشفوية البدائية إلى الكتابة التحريرية. كان استخدام الكتابة في العصر الكلاسيكي في اليونان ما يزال فنياً للغاية، ولهذا لم تكن الكتابة أمراً مسلماً به على قدر كبير، كان



القدرة التي حصل عليها بوصفه مستمعاً لما يقال ولتمثل في توضيح ما هو مكتوب.

٣- تختلف عن الكلام الشفوي، في أنها لا تنحصر ضمن نطاق دائرة مختارة بعناية ودقة من المتعلمين، وإنما تطوف في أذهان أولئك الذين يدرسونها وأولئك الذين لا يهتمون بها.

٤- يكون كثير مما هو مهم في الكلام المكتوب عن أي شيء مجرد لعبة لأن مؤلف الكتابات لا يكون حاضراً، ولذا لا يستطيع بجديته شخصيته الكاملة أن يكون مسؤولاً عن الموعظة التي يقدمها.

افلاطون ونتائج الحرفية

ويستدل من المنهج الافتراض السليم السابق لنقد أفلاطون على إنجازات جوهرية للكاتب:

١- أنها تخفف العبء عن ذاكرة الفرد وذلك من خلال التهام مضامين الذاكرة في أرشيف متنامٍ للمعرفة الموضوعية بحيث تكون هذه المضامين قابلة للاستدعاء عند الحاجة.

٢- أنها تستطيع بفضل قوامها المادي الاستمراري ومع ذلك القوام المتحرك فك الارتباط علامات تتواصل طويلاً فوق أرضية متقلبة من موضع نشأتها وتصبح مثالة في أماكن قصية وفي سنوات لاحقة، بيد أنها بحاجة إلى الترجمة والتعليق والتفسير لتجاوز الفترات الزمانية والمكانية.

٣- أنها بصفة خاصة تكون في صيغة صوتية - أبجدية سهلة التعلم بالنسبة إلى كل فرد بحيث تصبح المعرفة المنتشرة من طريق الكتابة سهلة الملك بوجه عام، وتضيق بذلك عنصراً من عناصر المجتمع الديمقراطي.

٤- أنها تتاجب كاتب وضع مسودتها بعفده، إذ تفتح أمامه فرصة متابعة الأفكار الجديدة بدون أي أزعاج، ويتعرض في الوقت ذاته إلى مغامرة الأشرطة الفكرية اللامسؤولة وإلى الخيال الساحر. لم تلق النتائج الختمية للحرفية التي توصل إليها افلاطون اهتماماً واسعاً في الألفي سنة التالية، نظراً لضرورة الكتابة وسيلة اعتيادية سهلة للاتصال الشفافي، إلا أن استخدام الفاعل اقتصر على فئة اجتماعية مختبئة حتى بدت مضامينها أمراً بدهياً لا تشكل أدنى خطر. غير أن اكتشاف الطباعة أدخل بتوازن والحرفية المحددة.

وبالنظر إلى الانتشار السريع لها هو مكتوب بفضل التقنية الحديثة انتقلت الحجج من محاوره افلاطون عن منفعة الكتابة ومضارها إلى المؤسسة الاجتماعية. وإزاء إمكانات سوق الكتاب التوسعية والخصبة المدرسية العامة والمطالعة الفردية استخدمت أدوات الرقابة والحراسة والقرائن. ولم تظهر الأفكار الفلسفية الثقافية إلا في القرن الثامن عشر إلى جانب جهات السلطة السياسية ولا تصبح شروط الثقافة الخاصة وأعية ومشيرة للارتباك إلا حينما نتعرف على الدلائل. لقد حدث ذلك من خلال رحلات الاستكشاف التي قام بها العلماء المراقبون في القرن الثامن عشر واختتمت تلك الرحلات بتقارير الأنثروبولوجيا الثقافية. وعلى ما يبدو كان من ضمن فوارق

الحضرات البارزة استخدام أو عدم استخدام الكتابة، وبصورة أخص، الاختيار المستغفصة الواردة في الصين التي أوضحت استخدام نظم كتابية مختلفة. ومن المقارنة الممكنة التي أصبحت بحق مقارنة ملحّة للثقافات العصرية مع الحضارات التقليدية تبين جلياً انعكاس الوسط «Medium» الكتابي، كما تفيد اليوم الأبحاث الخاصة بالشفوية «Orality» والحرفية «Literality» من مثل هذه المقارنات وسرعان ما أصبح تقوم هذين المنطقتين من الثقافة مشأراً للجدل. وفي الوقت الذي استندت فيه الفقه إلى توضيح متواصل لامتداده، وقبل كل شيء استرّت إلى إيصال المعرفة من خلال الكتابة والكتاب، قام روسو «Rousseau» بالأجابة عن المسألة الخاصة بجائز أكاديمية ديجون بالنفي الذي اتسم بالتحدي عن السؤال فيما إذا كان أحياء العلوم والفنون قد أسهم في تطهير الأعراف والتقاليد.

ومنذ مقالة «Discours» ١٧٥٠ اكتشف روسو أوجه الاختلاف بين أهداف الكتابة التي أسهمت في تجريد المجتمع الحديث ومبادئه وبين اللغة البدائية (لحالة الطبيعة الحسنة) «Guten Willen» التي خدعت التعبير الصادق عن الشهورات. تبدو الكتابة كأنها تغريب للوضع الطبيعي الذي لم تكن موجودة فيه سوى اللغة الشفوية فالكتابة التي يتعين عليها في الظاهر تسجيل اللغة، هي تماماً ذلك الشيء الذي يغيره: أنها لا تغير الكلام، بل الروح، أنها تستبدل التعبير البدقي. حينما يتحدث المرء بعبر عن مشاعره وحينما يكتب يعبر عن أفكاره. صحيح أننا نتكلم، إلا أننا لا نعد نعيش في ثقافة شفوية - فكل شيء يتسم بالجدية لتسجله تحريراً كالبدائية والحقوق والمعرفة، بتعبير أدق، أنها تواجها دائماً بصيغة مدونة.

هل يفترض أن يكون الكلام المنطوق ذا شأن، على سبيل المثال، في الخطاب السياسي أو عند ألاء الشهادات في المحكمة؟ وعلى هذا النحو فإن الكتابة تسبب الكلام المنطوق بوصفها مسؤولة أو تتبعه بصيغة محض. وهكذا يتخلص البلاغ الشفوي كما عهدناه في المسؤولية الاجتماعية إلى حد كبير، ويكتسب شكله العاجز في محادثة «Causerie» طريفة غير ملزمة. لا يتعين على المرء في أقصى تقدير استحضار أو انتفاض التعابير الخرافية المتقرضة تدريجياً، إذ تواصل الذكرى إلى أصابعها الوهن العيش في زمن يكون فيه اختيار المفردة الصحيحة أو المفردة الخطأ بمثابة شيء بقرر الصير. ولا يمكن لمجتمع ما قبل الأدب أن يواصل ديمومه إلا عندما يتم نقل قوانين علم الإنسان لذلك المجتمع وأدعيته وأقواله الماثورة في السحر بصيغة آمنة من جيل لآخر. ويجعل مثل هذه الأقوال مستديمة وبالتالي متواترة، قامت الثقافات الشفوية بتغذية جداول الوسائل الحافلة وتمييزها: الوضع المهني للمعنيين، إذ تمثّل ذاكرتهم المدربة تقنيات رائعة لفن تقوية الذاكرة. تثبيت انسيابية الكلمة بواسطة إيقاعات الجسم المنظمة (النفس، والنفس، والحظوظ) بحيث يرافق الوزن والغناء والرقص الكلام، ويرسخ في الذاكرة سياقاً على نحو أيسر: توحيد أنماط التعابير بصيغ تتسم

التيوغونيا «Theogonie» الشعرية لـ«هسيود» (Hesiod) بالثر الذي اتسم بالعلوم الطبيعية لـ«اناكسيمندر» (Anaximander) وحتى القرن الخامس إلى أن استبدلت الملحمة التاريخية العروضية لـ«هوميروس» (Homer) والروائع الثرية التاريخية لـ«هيريودوتس» (Herodot) و«ثوكيديدس» (Thukydides).

إن كل ذلك جعل النقاش عن هذين الشكلين للاتصال المعرفي أمراً حتمياً. وعلى الترحلات الفلاسفة على الشعراء انتك الارتبط المستحكم بين الشعر والحقيقة. لقد وجدت حيثيات ذلك في التدوين التحريري للأساطير الشعرية التي باتت محرماً عليها تكيف اقوالها بصمت بالنسبة إلى متطلبات ذلك الزمن الحاضر والبقاء «صادقة»: أو بالأحرى كانت نصوص الأساطير معرصة لتقادم الزمن والنقد. ومع أن هذا الاعتراض للتصور الفلسفي إزاء العالم المتعدد الألوان للقصص استند إلى التناقض القائم بين الصيغة الكتابية والصيغة الشفوية، إلا أنه كان مع ذلك ساري المفعول ولا يشكل معياراً سائداً في الثقافة العلنية الشاملة للصور القديمة. وعلى الرغم من أن افلاطون كان قد كتب محاورته، إلا أن المهة الملقاة على هذه المحاورات كانت في إعادة تقديمها بصيغة محادثات وإثارة الاهتمام والحث على تلك المحادثات.

وثمة تناقض مشابه في المسألة الأفريقية. لقد كان ادراكها للدولة المدنية اليونانية (Polis) يكمن في أنها عرضت مرة واحدة فقط، بيد أن المأساة ظهرت في كتاب وواصلت ديمومتها في الكتاب حتى وإن كانت الحياة الأدبية بالنسبة لتاريخ الأدب الأوروبي ذات شأن؛ كما هي الحال بالنسبة للمكان والزمان اللذين لم يكونا على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لتحقيق نشأتها الأصلية.

أرتاب اليونانيون والرومان بإمكانات الكتابة الأكثر منطقية وبالاتصال القائم بين المؤلف الوحيد والقارئ الوحيد. والقارئ الوحيد.

لقد تمسكوا بالمثل العليا للعلائية السياسية، التي يستطيع جميع المواطنين الأسهم بها في وقت واحد على الرغم من أنهم اكتشفوا مع الكتابة الوسائل التقنية القادرة على مجابهة هذه العلائية. وبالتأكيد، فقد ترتب على هذه التبعية نتائج وخيمة بالنسبة للدولة المدنية اليونانية (Polis) بحيث استطاع الفرد من خلال المطالعة الشخصية وبفضل حيازته للكتاب، استدعاء ما كان مثيراً سابقاً في مخيلته ثانية حتى أصبح الوجود الشخصي الذي لا يكثر بالاحداث السياسية صيغة الوجود التي تبث على الرضا.

ولاتحدد العلاقة بين هؤلاء الناس الأفراد المثقفين إلا بالتسامح بين القراء الذين يقرأون كتباً شتى وليس بمشاركة المستمعين الذين يستمعون إلى الشيء ذاته.

لقد بدا الأمر محيراً بالنسبة إلى اليونانيين حيناً أثرت الكتابة نشأة شيء ثالث بين الحقيقة والكتب، أي، الوهم. فالشيء المكتوب بعد أمراً ثابتاً، وعلى الرغم من ذلك، فهو غير جدير

بالتكوار: التقسيم الثابت لأساليب الكلام حسب الطول والوزن واللحن والطبقة الصوتية والمناسبة الأمر الذي يؤدي إلى تكوين عدد محدود من الاجناس التي تتسجم مع انواع التنظيفات في مجالات الحياة: الالتقاء العلني لهذه الخطب الثابتة في أيام المناسبات والاعياد حتى يلم به الجلب الصاعد منذ مرحلة الشباب.

لقد تم اكتشاف عناصر اللغة التي تنعمر علىها اليوم بصورتها الشعرية بوصفها وسائل مساعدة لتقليد يستند إلى الذاكرة. وفي هذا المعنى الذي هو معنى تقي يصبح تخمين الرومانسيين، بالأحرى صائباً، ذلك أن اللغة البدائية للبشرية كانت لغة شعرية، حقيقة تاريخية، غير أنه في واقع الحال، كانت الغاية الحقيقية للتقافة الشفوية تأمين المعرفة الاجتماعية وليس إفراز الشعر.

وفي عصر لاحق سادت فيه التقنيات المرحجة لحفظ المعرفة تبدو التقنيات القديمة التي أصبحت وسيلة لا ضرورة لها للتعليم اسرافاً غريباً يثير الدهشة وتضعبداً للامكانيات الغريبة التي تكتسب اعتباراً جيداً بوصفها شعراً في ظل السحر الذي لا موجب له. ومما لا ريب فيه يحلل الكلام المهم المزود بوسائل شعرية مكانة خاصة في الثقافة الشفوية من حيث أنه بين الانحراف عن اللغة اليومية العادية بوصفه إشارة للأهم الثانية من قوى جبارة. أنه كلام عن أروع الألهة أو العفاريت (اعتقاد يساعد بطبيعة الحال على عدم نسيان النص وجعله ثابتاً).

وإن هذا المظهر لأصالة الكلام الشعري يثبت نبض الحياة منذ الآن فصاعداً في اجبال الشعر والشاعر بوصفه «نابغا» حتى في العصر الذي تسود فيه الصيغة الكتابية. ويرجع أصل مفاهيم الأدب الأوروبي وصيغة ومواده إلى اليونان حيث تم هناك تدوين أولى الملاحظات والذكرات» الكتابية التي كانت حتى ذلك الوقت شعراً شفوياً موروثاً. وفيها عدا ذلك لم يحدث في أي مكان آخر نقل ثقافة الذاكرة ليجتمع تسود فيه الشفوية في أريثيف للكتابة يمثل هذه الصفة الشمولية. وبالنسبة إلى هذا الانقاذ المحفوظ كان الظرف هو المسؤول في أن اليونانيين بخلاف الحضارات الراقية الشرقية القديمة لم يعرفوا أية كتابة حتى القرن الثامن قبل الميلاد، ولكن فيما بعد استعاروا أفضل نظام للكتابة آنذاك، أي كتابة المقاطع الفينيقية، ثم قاموا باستعمالها إلى أبجديّة صوتية أجازت نقل اللغة بحروف أخرى على نحو دقيق لها موافق من احتياطي ثقافة الذاكرة، ذلك الاحتياطي الذي لم يزل كاملاً غير منقوص.

فك ارتباط الشعر والحقيقة.

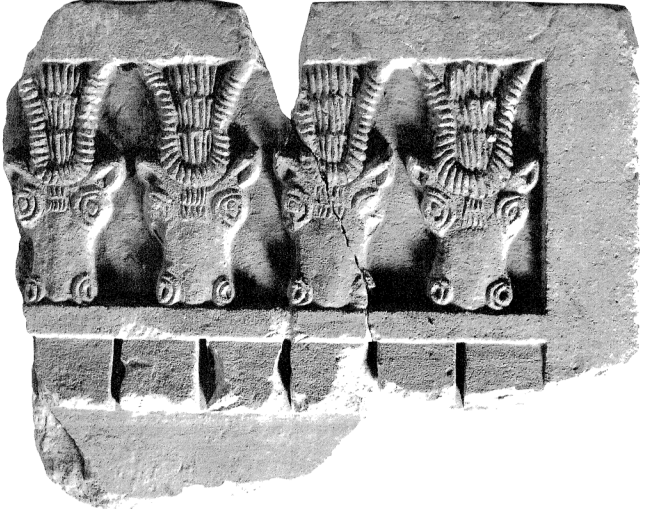
ظلت الثقافة الشفهية في اليونان، على الرغم من اكتشاف الأبجدية، مثالة على نحو مزدوج: من خلال تفويض الوحيد إلى قرابة العصر الكلاسي ومن خلال توثيقها الشامل والدقيق بفضل اداة الكتابة الصوتية بالذات. ولكن مع ادخالها في القرن الثامن قبل الميلاد الذي فسح المجال من حيث الأساس للتدوين بصيغة نثرية، فقد استغرق ذلك حتى القرن السادس إلى أن استبدلت

بالثقة .

إن من يقول «أنا» يقصد بها في الحقيقة هذه الـ «أنا» . ولكن من كتب «أنا» لا تعد الـ «أنا» بالنسبة للقارئ الذي يمسك الكتابة بيديه أمراً ملموساً . الكلام والسجع يحدثان في آن واحد ، وبين الكتابة والقراءة ثمة زمن ماضي دائماً . فالكلمة «أنا» المكتوبة هي غائبة ، وعليه يصبح حاضرها وهماً . لقد كانت الاسماء المعنية بالأحداث والمناسبات في أغاني سافو «Sappho» أو الكايوس (Alkalos) بالنسبة للمستمعين آنذاك واضحة ، أما بالنسبة إلى القراء فيما بعد ، فقد باتت الأغاني نفسها غير واضحة ويكتنفها الغموض وهكذا تتعرض القصائد كافة إلى الشك في أمرها ، فهي إما كذب أو تضليل . كما احتاج الأمر إلى إجراء نقاش طويل حتى تمكن أرسطو من الاعتراف بالوهم الشعري بعنوان «Mimesis» المحاكاة أو ذلك باعطائه مكانة خاصة تقع خارج إطار أما للحقيقة أو للكذب .

لقد كانت تأثيرات الكتابة في اليونان الكلاسيكية ذات شأن أكبر من الغرض المرسوم للكتابة عند تطبيقها . وبمجرد أن تلقت الكتابة المهام التي كانت تقع في السابق على عاتق الذاكرة ، فقد

استطاعت الطاقات المثقفة بعد تحررها أن تتجه إلى ذلك الفكر التصوري الذي أنبثت عنه الفلسفة والعلوم اليونانية . ولا يمكن أن يقوم الفكر الشكلي المنطقي بدون الكتابة ، إنه كامن في عملية الكتابة ، بيد أنه يتطلب اختيار الكيات وتركيبها بشكل مدروس . وفيما إذا كان الكلام الشفوي قد أفلح فإن ذلك يتقرر في الأحداث «actu» فهو يتعذر الغائى : «إزاء ذلك أصبح بالإمكان تخطيط النصوص التحريرية على المدى البعيد . فالمسودات تساعد على التخطيط واسترداد قراءة ما استحضري في ذهن مما سبق كتابته . وبما هو جدير بالذكر ، أن التشطيط والمسح يلعبان ما هو مكتوب . ولم يكن باستطاعة المرء تحقيق فكرة ما يمكن القيام به ، تلك الفكرة التي فطن إليها المثقفون اليونانيون والسياسيون والمهندسون في القرن الخامس قبل الميلاد بدون الخبرة المتراكمة من جراء الكتابة بالحروف الابجدية ، لأن هذه الفكرة تسمح بصياغة تصورات جديدة بمعزل عن صلات الحياة المحددة وتدوينها بصرامة «Stringenz» منطقية ، وعندما لا يتفهمها المعاصرون فانهم يتركون أمر قرار الحكم إلى الأجيال المقبلة . ففي الوقت الذي لا يكتب للموروث الشفوي الاستمرارية الا عندما يتم نقله بشكل متواصل



التي تمت دراستها، ذكرى عصرها الأخرى واستخدامها من قبل الأميين بحيث يمكن سماع اعتراض الصيغة الشفوية ضد الصيغة الكتابية اللاحقة.

رغبة الشاعر في أن يكون قاصاً

كان الشعر في بلاد اليونان من بقايا «Relikt» الثقافة الشفوية، أما في العصر الحاضر فقد أصبح الشعر عامياً لها. وهكذا أراد كتاب اللامح الحاضر منذ العصور القديمة إثارة الاهتمام إلى الظاهر الذي يبدو فيه كما لو كانوا مغنين وقراءهم مستمعين. وقد اختلج (راباليه) «Rabelais» في مقدمته لمؤلف «Gargantua» في أنه لم يكتب هذا الأثر في المكتب وإنما في إحدى الروايات بين وجبات الطعام والشراب وما يذكر أن الكتاب تظاهروا حتى القرن التاسع عشر والعشرين بانهم قضاة كما قلدها نيرة السرد الشفوي، إذ تبدو القصائد المكتوبة تحريراً كأنها «أغاني» تواصل ديمومتها في الواقع في ظل الغناء وتعد أغاني شعبية بمجولة. وحتى الرواية، حيث أن حجمها هو دليل على تطورها التحريري، تأخذ بنظر الاعتبار منذ زمن طويل تقاليد البلاغ الشفوي، إذ تبنى قصتها بصورة مستقيمة وتسردها على نحو برهاني، كما تقدم تلك القصة بكمالات واضحة جلية. وهكذا، فإن القارئ، كما لو كان مستمعاً، يتأكد من كل موضع من مواضيع القصة من الفهم الصحيح دون الحاجة إلى تذكر النص بأكمله. إن علاقة التذكروالنسيان هذه المستعارة من الشفوية لا تغيب إلا في بعض الروايات مثل رواية «الانساب المختارة» (Wahlverwandschaften) لـ «غوته» أو رواية «التربية العاطفية» (Education Sentimentale) لـ «فلويسر» أو «فوليسيس» لجويس.

فالنص هنا موضوع بشكل حيث أن فيض المعاني التي يمنح إليه النص في كل تفصيل من تفاصيل الأثر يفيد منها ذلك القارئ فقط الذي يقيم صلات مع فقرات أخرى (للأثر أو مع باقي الأدب). ويتنفع بالتالي من مزاي التدوين التحريري للنصوص. وبمع اجناس الرواية على اختلافها، والتقليد البلاغي، والطوبولوجيا انتهى في القرن الثامن عشر اثر الشفوي في الأدب الأوروبي. فهذه الاعراف مهما بلغت درجة من الوهم والافتقار إلى هدف جاد، فهي لم تزال تعيش في ذكراها وبوظائفها السابقة التي يعين عليها تأديتها في الواقع المعيش للثقافة التي كانت تسودها التذكروالنسيان. وترسخت تأديتها الطوبولوجية للأنتاج والتلقي في الأدب الجديد للعقدين الأخيرين: كتاب ومكتبة وطاوله كتابه وأخيراً آلة الطباعة. وفي ظل هذه الظروف لم تعد تنشأ الأشعار بل «النصوص»: مؤلفات كتابية متواصلة واقعية تتسم بتراكيب خارجة عن الطرق المدروسة، منسقة بأسلوب فني. لقد مضت ألفا سنة ونصف حتى أصبحت نتائج الحرفية منطقية.

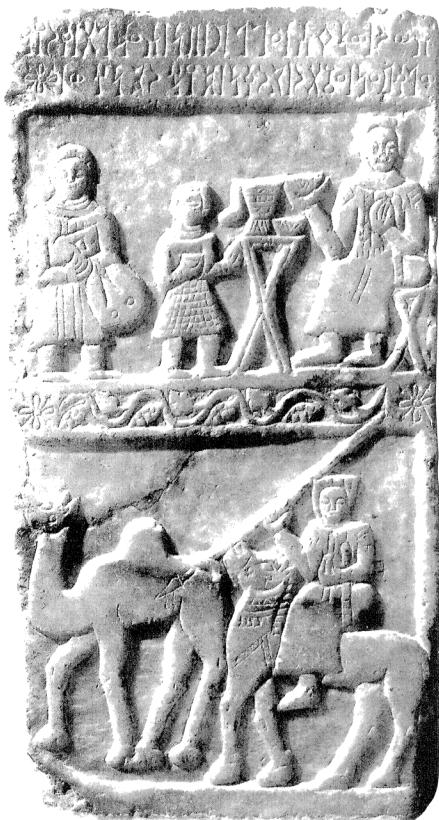
ترجمة: اقبال ايوب

* سافو: أواخر القرن السابع، أوائل القرن السادس قبل الميلاد، شاعرة غنائية يونانية، لم يبق من آثارها غير شذرات قليلة.

وبلا غفرت، فإن النص المثبت تحريراً يمتلك، بمجرد أرشفته وأن كان غير مقروء، فرصة أن يؤدي مفعوله في المستقبل حتى بعد فترة طويلة من خزنة. وفي هذا الجانب نراه يتمتع باستقلالية ذاتية وطبقاً لذلك يتغير الطابع الاجتماعي للحرفية عند الانتقال من الحالة الشفوية إلى الحالة التحريرية: ففي الثقافات الشفوية يقوم كبار السن بتمثيل هذه المعرفة، إذ تنبع حكمتهم من خبرتهم الطويلة بالتقليد.

وبخلاف ذلك، أي في الثقافة الحرفية المتطورة، نرى أفكار الشباب الطارئة تحدث ثورة في موجودات المعرفة الموروثة. ولا مناص من شروط خاصة للأطراف التي تتطور النتائج الحتمية للحرفية من المعاني الضمنية للكتابة «Implikationen». وما دامت الكتابة مرتبطة بالنصب الصخرية والمهام ذات العلاقة بالعبادة كما هي الحال في مصر، وتقتصر على صفوة اجتماعية معينة، كما في الصين، أو تكون حكرًا على ميادين دينية خاصة كما في الهند أو في أوروبا القرون الوسطى، فأنها لا تطور متفهمها الملازمين لها ولا الطاقات الاجتماعية. ومن الجدير بالذكر أن الكتابة الدنيوية لم يكن بوسعها النجاح في مسعاها بهذه السرعة في بلاد اليونان بدون الظروف الجلية الشأن الظاهرة للعيان، ويسود الظروف التي قد تبدو ثانوية، وغياب رجال الدين «الكلمبريس» وأستيراد البردي. ويهدف تحريك سلسلة من السببية التاريخية تحتاج التوحيات إلى كميات معينة. وثمة شيء مماثل نلاحظه في العصر الحديث، إذ لا تتضح التأثيرات المحتملة لطباعة الكتاب فور تصنيعه. لقد أدخل نظام مكتبي كفو منذ القرن الثامن عشر بعد أن اجري تخفيض على تصنيع الكتب، كما تم بلوغ القدرة القرائية بشكل عام. ولم تصبح الكتب إلا في الوقت الحاضر - بقدر مماثل أو بقدر أعلى في القريب العاجل، ممكنة وسهلة المنال، كما كانت حال الكتب في العصور القديمة. كان يتعين على الناس في العصور الوسطى أن يقدوا الكتب، وهكذا استطاعت المعرفة الانتشار ببطء. أما في العصور القديمة كما في العصور الحديثة فالتكتب هي التي تقصد الناس بحيث تتراكم المعرفة بسرعة مذهلة.

تنقسم الشفوية والكتابية في دول أوروبا العصور الوسطى وبداية العصر الحديث إلى لغتين. ولقد كانت أغلبية الشعب، بما في ذلك طبقة الارستقراطية تعيش في اطار من ثقافة لم تحظ بلغة كتابية خاصة إلا بتدريج في جميع الملهجات المحلية. غير أن فئة صغيرة حددت لهم تعليمية، تعلمت اللغة اللاتينية في المدارس على أنها لغة عملية ثانية فاللغة التي يتم توارثها بالصيغة الكتابية لا يمكن أن تكون لغة الأم، فضلاً عن أنها لم تكن مفهومة خارج المؤسسات الأكاديمية، ولذا أصابها الجمود في السكولائية التحريدية «Scholastik» وفي البلاغة «Rhetorik» أيضاً ولم يرفع هذا الانقسام إلا في القرن الثامن عشر بحيث أصبحت اللغات القومية منذ ذلك الحين ختصة بجميع المهام اللغوية على الكتابة. ومع ذلك تدوم في هذه اللغات الجديدة، بخلاف اللغة اللاتينية





اغنية حب وموت حامل العلم كريستوف ريلكه

راينار ماريا ريلكه

المقدمة:

ان العمل الشعري اغنية حب وموت حامل العلم كريستوف ريلكه Die Weise von Liebe und Tod des Cornets Christoph Rilke (وهو مكتوب بأسلوب قصيدة النثر) يمزج بين بعض المعطيات البيوغرافية (معطيات السيرة الذاتية) وعمل الخيال. موضوع القصيدة - الحكاية شديدة البساطة: شاب يتطوع في الجيش النمساوي، ويُعين من قبل الجنرال المهيب الجانب «سبورك» حاملاً للعلم، ويسارك في صد الأتراك، بعد ان يعيش ليلة غرام شائقة مع «الكونتيسة». ويقع في المعركة، ممبّزاً من بعيد، هو ولواؤه المحترق.

خضع هذا العمل لتعديلات عديدة من لدن الشاعر. فهو قد كتب صيغته الأولى في ١٨٩٩. ثم أعاد كتابته في ١٩٠٤ ونشره في مجلة شهرية في براغ (مجلة «العمل الألماني» Deutsche Arbeit) ثم أعاد كتابته مرة أخرى ونشره في صيغة جديدة نهائية ببرلين في أواخر ١٩٠٦. غير ان الانتشار الواسع للعمل لم يتحقق إلا في ١٩١٢، عندما ظهرت القصيدة في منشورات «أنسل» Insel التي ستعده منذ ذلك الحين بنشر أعمال الشاعر. وحقق العمل الصغير انتشاراً وشهرة لم يعرفها عمل أدبي قبله، منذ «آلام فيرتر» ولغوته. وساهمت في انتشاره بالطبع عوامل عديدة. منها حيوية الناصر، وكون العمل خضع لتصحيحات متتالية من قبل الشاعر. ولكن بخاصة لأن ظروف الحرب العالمية الأولى جعلت الكثير من المجندين والشبان يجدون مثلاً لهم في هذا الشاب ذي السيرة الفروسية الفذة،

المُطعممة بفصول غرامية ساحرة. وقد بلغ انتشار العمل، والاستخدام «السياسي» الذي تعرض له في التعبئة للحرب الأولى، أن حُنَّ مراراً عديدة، وأصبحت أمسيات كاملة تُعقد لقرائه. وكان أن رُشِّح الشاعر لنيل وسام «فرانسوا جوزيف» من يدي الاسرطور شارل، ومع ان الترشيح تُوِّج بالنجاح، فإن الشاعر، الذي أبداً لم يعتبر نفسه «نمساوياً جيداً»، اعتذر عن قبوله، متعللاً برغبته بالمحافظة على «حياة عقل» أي بعيدة عن الاضواء.

إلا أن قارئ ريلكه، في ما وراء هذه الاعتبارات الظرفية، انما يجد في هذا العمل أنموذجاً على سعة خياله الشعري وبساطته العميقة، وكذلك مثلاً على عبقرية اللغوية التي تتجلى هنا عبر لوحات ومجلّ طويلة تارة، وبألغة الواجهة تارة أخرى. ثم انه يجد وراء حكاية الشاب ريلكه، التي تتوقع في القرن السابع عشر، والتي يقول الشاعر انه عشر على عناصرها ومعطياتها في بعض الارشيفات والوثائق العائلية، نقول يجد وراءها تحقيقاً عبر الفن لحلم قديم لريلكه، الذي دخل في صباه الكلية العسكرية واضطر لمغادرتها لهزلة الجسائي. ان اكثر من رسالة لأمة، وفيها بعد لاهنته، تكشف عن أنه لم يتجاوز تماماً تلك الحنية، وأن نوعاً من الفروسية بقي يشكل مثله الأعلى لزم طويل. ولاشك ان هذا العمل الموجز، والفريد، قد لعب هنا دوراً ومظهرًا إذ مكن هذا الحلم من أن يجد سبيله الى التحقيق... عبر الكلمات.

المترجم



راينار ماريا ريلكه:

رسم ليويند باسزينك واليد الشاعر الكبير يوريس باسزينك

اغنية حب وموت حامل العلم كريستوف ريلكه

راينار ماريا ريلكه :

التسلم بموجيها لآغياً في حالة رجوع شقيقه كريستوف الذي نصّت شهادة وفاته على انه كان ، ساعة وقوعه ، حاملاً للعلم في فرقة البارون «بيروفانو» التابعة الى فوج فرسان الامبراطورية النمساوية الذي كان يقوده «هيستر» .

(١٠٠٠ في ٢٤ تشرين الثاني / نوفمبر ١٦٦٣ ، تسلم أوتو فون ريلكه ، في «لانغنو» و«غراينيس» و«تسيفرا» ، في مقاطعة «ليندا» ، حصّة الارض التي تركها شقيقه كريستوف الذي لقي مصرعه في هنغاريا . الا انه كان عليه أن يمضي على رسالة تنازلية يكون

خَبَبٌ ، خَبَبٌ ، خَبَبٌ في النهار ، خَبَبٌ في الليل . والقلب مُنْهَكٌ والحزنُ كبيرُ جدا . لا جبال - بالكاد شجرة . لاشيء يبرؤ على الظهور . أكراخ عجيبة ، مقعبة قرب أبارظمأى ، يملؤها الوحل . ما من برج في الأفق - دائماً المنظر نفسه . للمرء عينان زالدتان . في الليل ، نحسب أحيانا أننا نعرف الطريق . ولكننا ربا قطعنا في الظلام ، ثانية ، المرحلة التي اجتازناها بعناء تحت شمس غريبة . ذلك جائز . ثقيلة هي الشمس ، كما عندنا في عز الصيف . ولكننا في الصيف ودّعنا الأهل . طويلا ، بقيت فساتين النسوة تلمع في المروج . وها نحن أولاء فوق خيولنا منذ زمن . انه الحريف بلاشك . هناك ، على الأقل ، حيث تعرفنا نساء حزينات .



يسوي «الآغني» * جلسته على صهوة جواده ويقول : «سيدتي المركيز» . . . بقي جاره الفرنسي الظريف يتكلم ويضحك ثلاثة ايام . وها هو الآن متعب . كصغير يستبد به النعاس ، تجمع الغبار حول ياقته البيضاء الدنتيلية المرفعة . لا يلاحظ ذلك . يتكلم رويدا رويدا على صهوة جواده المخملية .

يتسمم «اللانغني» مع ذلك ويقول : «ان لك عينين غريبتين ، سيدتي المركيز . يقيناً أنك تشبه والدتك» . يتورد خدّاً الفتى الفرنسي . ينفض عن ياقته الغبار : كأنها جديدة !



أحدهم يتحدث عن أمه . هو بلا شك ألماني . يُحْكَمُ كلياته بصوت عال ، متربث . كفتاة تشد باقة من الزهر وتجرّب ، بانتياء ، الازهار واحدة تلو الأخرى ، لا تعرف ما س يظهر من الكل : هكذا كان يدورن كلماته . من أجل الفرع؟ من أجل الحزن؟ الجميع يرهف سمعه . حتى البصاقون هاهم أخيراً يصغون . ذلك أنه ليس هنا غير سادة شديدي اللياقة ، وحتى أولئك الذين لا يفقهون الألمانية ، هاهم يفهمونها على حين غرة ، ويحسون ببعض الكلمات : «في المساء . . . أيام كنت صغيراً . . .»



هاهم يتحلقون أخيراً ، السادة الذين أثوا من فرنسا ومن برغونيا ، من البلاد الواطئة ومن وادي كارنته ، من قصور بوهيميا ومن لدن الامبراطور ليو بولد . ذلك ان ما يرويه أحدهم ، كان الجميع عاشه ، وعلى هذه الشاكلة نفسها بالذات . كما لو لم تكن ثمة غيرهم وحيدة .

هكذا ندخل، على ظهور جيادنا في المساء. مساء كسائر المساءات. من جديد نصمت، ولكننا نحمل معنا كلمات مضية. يرفع المركز خوذته. شعره البني بالغ الرقة، وعندما ينجي رأسه، يتداعى الشعر فوق علباته بحركة شبه أنوثية. هاهو «اللاتني» يلحبه بدوره: في البعيد شيء ما يتلح برأسه، لا تدري أي شيء هو، معتم وأغيف. عامود متوحد تفتت. بعد هذا، بعده بزمن طويل، يتذكر أنه كان مثلاً لمرم.

في العراء نُحَيِّم. نشعل ناراً. نتحلق حولها وننتظر. ننتظر من يبدأ بالغناء. غيران الجميع قد استبدَّ به التعب. وثقل هو الوهج الأحمر، يستلقي فوق الأحذية المترية، يزحف حتى الركب، ويندس بين أكفنا المضمومة. لم تعد لديه أجحة. ومعتمه هي الوجوه. غيران عيني الفرنسي الشاب تسطعان برهة، بضوء نادر. قبل ورده قصيرة: حرة هي الآن في أن تذبل على صدره. أبصره «اللاتني»: كان غير قادر على النوم. يفكر: «ليس لدى من ورده! ليس لدى من ورده!» ثم يشرع بالغناء. أغنية قديمة حزينة تغنيها فتيات بلاده في الحقول، خريفاً، عندما يقارب موسم الحصاد نهاياته.



يقول له المركز: «انك فتى يا صاحب». فيجيب «اللاتني»: نصف حزين نصف غاضب: «ثاني عشرة». ويصمتان.

فيا بعد يسأل الفرنسي: أليديك هناك أيضاً خطيبة، سيدي اليونكر؟ «وأنت؟»، يجيبه «اللاتني»: «هي شقراء مثلك».

ويصمتان من جديد، إلى أن يصرخ الألمان: «فيا تفعل بالله هنا فوق جوادك، عبر هذه البلاد المسمومة، ساعياً إلى ملاقاته هؤلاء الملاعين الأتراك».

يتسهم المركز: من أجل العودة.

«اللاتني» يبدو معتصاً. يفكر بفداء شقراء كان يلعب معها ألعاباً وحشية. يريد أن يعود، ولوللحظة، للزمن الكافي لأن ينطق أمامها بهذه الكلمات: «العفوياً ما جديلاً، لأنني كنت هكذا دائماً. كيف؟ يفكر الشاب. ولكن ها قد أصبحنا بعيدين.



ذاتُ صباح، كانوا هنا، فارساً، ثم آخر، ثم أربعة، عشر... كلهم حديد: عاقلة! ثم ألف فارس، ومن وارتهمُ الجيش. ساعة الانفصال هي هذه.

«عوداً ميموناً، سيدي المركز.

«حرسك العذراء، سيدي اليونكر».

ولم يكن بوسعهما أن ينفصلا. كانا صديقين وها هما الآن شقيقان. محتاجان إلى مسارات جديدة، ذلك أن كلَّ منهما يعرف عن الآخر أشياء كثيرة. يتمهلان. ومن حولهما استعجال وضجيج جُزْئات. إذ ذلك ينزع المركز قفازيه اليميني، الواسع. يخرج الوردة الصغيرة، ينزع عنها ورقة كارت يُسَمُّم ديفيف القربان: «سوف تحفظك هذه. «وداعاً». منهشاً، يتبع «اللاتني» الفتي الفرنسي بنظرانه طويلاً، ثم يدس الوردة العجيبة تحت قميصه، قميص المحارب. هي ذي تملو وتلطي فوق مويجات قلبه. البوق. يركض بجواده في اتجاه الجيش، هو اليونكر. يتسهم بكآبة: امرأة غريبة تحرسه.



نهار كامل في قافلة المؤونة. سباب. ألوان وضحك. بلاد باهرة بهذا كله. يصل فتيات مُرَقَّشون: شجار وضحك. تأتي فتيات بقبعات أرجوانية فوق شعرهنَّ العائم. نداءات. يأتي خذم سود من الأسلحة التي يحملون، كليل تائه. يقبضون على الفتيات بمثل هذه الحمية بحيث تتمزق الفساتين. يعصرهنَّ على حافات الطبول الضخمة. وتوقظ المقاومة الأكثر بأساً للأيدي النافقة جميع الطبول، وكما في الحلم هاهي ذي تدوي، تدوي. في المساء تقدّم له فوانيس. فوانيس عجيبة. تبيد يتلألأل في خوِّ حديدية. نبذاً أم دم؟ أم قدران يميز؟

أمام «سيورك» أخيراً . إلى جواده الأبيض يقف «الكونت» . لشعره المسترسل لمعان الحديد . لم يكن «اللانغني» بحاجة إلى أن يسأل . ميز الجنرال على الفور ، فقفز من على حصانه وانحنى وسط غرامة من الغبار . يحمل رسالة تقدمه للكونت . غير أن الأخير يأمره : «فلتقرأن علي هذه القصاصة» . لم يحرك الكونت شفتيه . هما للقسم تصلحان . والبقية يتكفل بها ساعده . كفى ! ويداً مكتفياً . كان الشاب قد أكمل قراءته منذ زمن غير قليل . ولا يكاد يعرف أين هو الآن . أمام «سيورك» ، تظلم جميع الأشياء . صفحة السماء نفسها تلاشت . إذ ذاك يقول «سيورك» ، الجنرال الفخم :
«ستكون حاملاً للعلم» .

وهذا كثيرا
كانت الفرقة خيمة وراء «الراب» . يتبعها «اللانغني» وحيداً فوق جواده . في المساء ، يلمع قريوس صوته عبر الغبرة : هوذا القمر يرتفع . يصوره عند مستوى كفيه . يحلم .
غير أن شيئاً ما يصرخ في اتجاهه .
يصرخ ، يصرخ .
يمزق حلمه .
ليست هذه ببومة . ياسماء ، انها الشجرة الوحيدة في المكان تصرخ نحوه!
- يا هذا!
يحدق : شيء يتلوي . جسم إنساني يتلوي على طول الشجرة . امرأة ، فتية ، عارية ، ومدممة .

تنقض عليه : انقلني!
ويقفز من على جواده في الريف المظلم .
ويحل حبلاً كانت سابحة في الدم .
ويرى الى عينها تتلألأ
والى اسنانها وهي تعض .
أكانت تضحك؟
يُشعرُ يده .
وها هو من جليد فوق حصانه .
يجب في الظلام ، عاصراً بين كفيه حبلاً دامية .



يكتب «اللانغني» رسالة . إنه منهمك . ببطء ، يرسم احرفه كبيرة ، مستقيمة وجادة .
والدتي الطيبة ،
كوني فخورة : انني أحمل العلم .
لا تقلقي : انني أحمل العلم
أحبيني : انني أحمل العلم . . .

ثم يعصر الرسالة في قميصه ، يضعها في الركن الاكثرسرية ، قرب وريقة الوردة . ، يفكر : عما قريب ستكون الرسالة مضمخةً بأريج الوردة . ويفكر : ربها وجدها أحد ، ذات يوم . ويفكر : . . . ذلك ان العدو قريب ! .



تمزّجهم بفلح مذبح . عيناه مفتوحتان على سمتهما . شيء ما فيها ينعكس : لم تكن ثمة من ساء . فيها بعد ، كلاب تنبح .
وها هي أخيراً قريبة . وراء الاكواخ ، تنهض قلعة بُنيت بكاملها من الحجر . يمتد نحوهم الجسر الواسع . وتوسّع البوابة . عالياً ، تصدح الابواق مرّخة .
أصغر : صخب ، قعقة سلاح ، ونباح . سهيل في الحوش . وقع حوافر ، ونداءات .

استراحة: أن تكون أخيراً ضيف أحدها. أن لا تُشيع دائماً رغباتك بنفسك، بزاد فقير. ألا تمسك دائماً بالأشياء بكف عدوة. أن تدع غيرك، مرة واحدة على الأقل، يقم بكل شيء وأن تعرف: كل ما يحدث حسناً، الآن. الشجاعة نفسها يجب أن تتمدد، وتتكرر على نفسها في أغلبية حريرية. ألا تكون محارباً على الدوام: أن تحمل مرة واحدة درعك مفتوحة، وياقتك العريضة مشرعة، وأن تستريح على أرائك وتحس بنفسك، حتى اطراف أصابعك، كما أنت بعد الاستحمام. أن تبدأ تتعلم من جديد كيف هُن النساء. كيف هُن البيض وكيف هُن زرقاوات السحنة. أية أيل هُن، وأي غناء هو ضحكهن حينها يجعل الصبيان الشقر كزوساً جميلة مترعة بشرا شهية.



كانت استراحة في البداية. ثم تحولت الى عيد، لاندري كيف! كانت المشاعر العالية تراقص والاصوات ترتعش، وأغان مبهمة تردد في الاقداح والضوء وأخيراً، من الايقاعات التي نضجت رويداً رويداً، انبثق الرقص. اجتذبهم جميعاً. كانت تلك امواجاً متلاحمة في الصالة، يلتقي الناس ويختار بعضهم البعض، يودعه، ثم يعود ليلتقيه مرة أخرى، كانوا يمثلون بالقصوة، ينهرون، ويتأرجحون في رياح الصيف التي هي فساتين النسوة اللاهيات.

يا للنيبذ الغامق! ألف وردة تتسابل، الساعة، خشخشة في حلم الليل. كان أحدهم يتأمل هذه العجيبة مندهشاً. وهو على هذه الحال بحيث يتساءل اذا كان سيستيقظ فجأة. اذ ليس الا في النوم يُرى بلذخ كهذا وأعياداً للنسوة كهذه: أدنى حركة منهن هي ثنية تسقط في جاورر. يشيدن الساعات بأحداث مفضضة، ويرفعن أحياناً أيديهن فيكون ذلك كما لو كن يقظن، في مكان لا تقدر أن تبعله، ثباراً شهية لا تبصرها. وما انت ذا تحلم: أن تكون مزبناً بسحرهن، مشيع الرغبات، وان تستحق لجبهتك العارية تاجاً.



أحدهم، كان متشجاً باليباض، يشعر بأن في امكانه ان يستيقظ، ذلك أنه في الواقع يقف وضائع. يلوذ من خوفه بأذيال الحلم، ثم ها هو في الحديقة، متوحداً، في الجنيئة المظلمة، والعيد بعيد. تكذب الأضواء. والظلام، قربه، ندي ومنعش. يسأل امرأة منحنية فوقه:

«أنت الليل؟»

تبسم.

وها أنه يشعر بالخزي من رداءه الأبيض، ويود لو كان بعيداً، ووحيداً، ومذججاً بكامله بالسلاح.



«أنسيت أنك لهذا اليوم غلامي؟ أفكر بمغادرتي؟ أين ستذهب؟ رداؤك الأبيض يمنحي حقاً فيك...»
«أنايأم أنت على بزتاك العسكرية المضحكة؟»

«ترتجف!؟ ضجرت أنت من بلادك؟»

تبسم الكونتيسة.

كلا. ولكن لأن الطفولة سقطت من على كتفيه. ذلك الرداء الجميل الغامق،

من أخذه؟

«أنت؟»، يسأل بصوت لم يسمعه هو نفسه أبداً من قبل:

«أنت؟».

والأما ما عاد يستره أي شيء:

عار هو كديس. مؤتلق ونحيف.

واحدًا بعد الآخر تنظفء قناديل القلعة . الجميع مثقل : بالتعب ، بالحب أوبالسُّجُر . بعد كل هذه الليالي الطويلة ، الفارغة ، المتقضاة في أسرة الميّدان ، ها هي الفرش . أسرة واسعة من خشب السنديان أنت لاتصلي فيها كما في أخاديد الحقل البائسة ، التي تتحول ، ساعة النوم ، إلى ما يشبه قبورا فارغة . «رباه ، كما تشاء!» . صلاة الانسان موجزة في السرير؛ ولكنها أكثر ورعاً .



سُجرة الحصن . مظلمة . ولكنها يضيء أحدهما وجه الآخر بالبسيات . يتهمسان أمامهما كأعميين ، يعثر أحدهما على الآخر كمن يعثر على باب . كمثل طفلين خائفين من الظلام ، يعصر أحدهما الآخر ، مع هذا فليسا خائفين . لاشيء يداهمها ، ما من أمس ولا غد . لقد انهار الزمن ببساطة . خارج انقاضه ، يُهران . لا يسأل : «زوجك؟» . لا تسأل : «اسمك؟» . لقد انتقيا ليصنع أحدهما للآخر سلالة بشرية جديدة . سيمنحان نفسيهما ماثات الاسماء ، ويتنزعها أحدهما من الآخر بركة ، كما يُنتزع قرط من الأذن .



في السراق ، قميص «اللانغي» على كرسي ، هوجيلته ومعطفه . قفّازه على الأرضية . والعلم يقف بصلاية ، متكشاً على النافذة . نحيف وأسود . في الخارج تخرق السماء عاصفة تقسم الليل الى قطع سوداء وبضياء . يمر ضياء القمر كومضة طويلة ، والعلم الثابت يرسم من حوله ظلالاً قلقة . يحلم .



أهو الصبح ؟ أي شمس تشرق ؟
ما أكبر هذه الشمس ! أهذه طيور ؟ ان اصواتها في كل مكان !
كل شيء مضاء ، ولكن ليس هذا هو النهار . كل شيء صاحب ، لكن ليس هذا شدو عصفافير .
انها العوارض تلمع . النوافذ تصرخ . تصرخ ، هراء ، في اتجاه العدو المنتشر في الخارج عبر الريف المشتعل . تصرخ : «الى النار» . والكل يتزاحم ، حاملاً نعايه الممزق في الوجه . يتدافع نصف مسلح نصف عارٍ ، من صالة الى أخرى ، بحثاً عن الدرج .
والأبواب بأنفاسها المختلفة تتلعثم في الباحة .
التفيرا التفيرا
وخويل مرتجفة .



نافذة . هل هي مفتوحة ؟ العاصفة . هل هي في المنزل ؟ ما للأبواب تصطفق ومنّ الذي يجتاز الصالات ؟ . أيا كان ، فسوف لن يبتدي الى حجرة الحصن . هذه كما لو كان وراء مئة باب هُو هذا النوع الباذخ الذي يجمع كيانين : كأم أو كموت .



ولكنَّ العَلَمَ ليس هنا.
نداءات: «حامل العلم!»
خيول هائجة، ابتهالات، صرخات.
شنائم: «حامل العلم!»
حديد ضد حديد، أوامر، صفارات.
صمت: «حامل العلم!»
ومرة أخرى: «حامل العلم!»
وأماماً، الخيالة مزبدة.
.....
ولكنَّ العلم ليس هنا.



يركض متعشراً في أروقة تلتهب. يخرق أبواباً تعصره، أبواباً حارقة، ويمرُّ بأدراج مشتعلة. يهرب من البنى الهائجة. يحمل بين ذراعيه العَلَمَ كامراً شاحبة أغمي عليها. يجد حصاناً. وما هو منطلق كالصرخة: يجناز الحشد كله، حتى أصحابه. هذا العلم يعود إليه أيضاً، وأبداً لم يكن ملكياً كما هو الآن، وما أن الجميع يرونه في هذه اللحظة، بعيداً، في الامام، ويميزون الرجل الواضح، بلا خوذَة، ويميزون العلم كذلك... ولكن ما هو يبدأ بالتأجج، يندفع، يزداد أرجوانية، يكبر.
.....
ها هو العَلَمُ مشتعِل وسط الأعداء، وهؤلاء يَسعون خَلْفَه.



«اللانغي» في قلب الاعداء. ولكن وحيد. صنَّع العلم حوله حلقة فارغة، وما هو يقاوم في المركز، تحت علمه الآخذ بالاحتراق رويداً رويداً.
بسطه، في شبه انشداده، يخلق حوله. اشياء غريبة كثيرة، ومُبرِّقة. «حدائق»: يفكر ويتسم. لكن ما هو يشعر فجأة بأعين تحاصره، ويميزه الرجال، ويعرف انهم القوم الكفرة: فيفقد بحصانه في قلب الحلقة.
ولكن حينما انغلق كل شيء وراءه، كان ما يزال مع ذلك يرى الحدائق. والشجرات الست عشرة المنحنية التي كانت تسقط فوقه دفعةً دفعةً إنها هي عيد.
شلال ضاحك.



في القلعة، التهمت النيران قميصه والرسالة وورقة ورد المرأة الغربية.



في الربيع التالي (جاء حزيناً وبارداً) دخلَ ساعي بريد البارون «بيروفانو» قرية «لانغنو» بمشيئة بطيئة. وهناك، وجد عجوزاً تبكي.



ترجمة:
كاظم جهاد
مراجعة د. علال ناصر

ثمة انجذاب اليه يتحدّى الموت والزمن

مقدمة

السواحي. فمكنت من ان أميز بينها روائح الشحم، والبطاطا المقلية، والبيود وفورهم، والخوف. كل المدن تطلق مثل هذه الروائح في الصيف. ثم رأيت منزلاً اعمى بطريقة عجيبة. لم اعثر عليه في خارطتي غبراني شاهدت فوق الباب مكتوباً: ملجأ ليلي. وقرب الباب كتبت الاثان. قرأها. لم تكن غالية. وماذ بعد ذلك؟ شاهدت طفلاً بعرة صغيرة واقفة: كان سمياً ولونه يميل الى الخضرة وعلى جبينه تبهر كان في طريقه الى التسلاشي ولذا فانه لم يكن يؤله. كان الطفل ينام مفتوح الفم، ويتنفس روائح البطاطا المقلية والبيود وفورهم والخوف. هكذا كان وهذا كل ما كان. المهم هو ان نعيش. وهذا هو الأهم.

(٢) ضرورة الشعر

أعتقد انه علي ان أشعر في العمل قليلاً، الآن وقد تعلمت أن أرى. عمري الآن ثمانية وعشرون عاماً. والى حد هذا الوقت لم يحدث شيء ذو أهمية. لقد كتبت دراسة رديشة حول (CARPACCIO) ومسرحية عنوانها «العرس» كنت أرغب من خلالها في فك نظرية خاطئة بواسطة وسائل ملتبسة وبأبيات شعرية. ولكن هذه الابيات الشعرية لاتمني شيئاً مهماً اذا ما نحن كتبناها في سن مبكرة! علينا ان ننتظر وإن نذخر أشياء وأحاسيس كثيرة طوال حياة بأكملها. ثم بعدئذ، وربما في وقت متأخر، بإمكاننا أن نكتب العشرة أسطر التي يمكن ان تكون جيدة. ذلك ان الابيات الشعرية ليست كما يتصور البعض، عواطف (نحن لنا عواطف منذ سن مبكرة)، وانها هي تجارب. لكي نكتب بيتاً واحداً، لابد ان تكون قد شاهدنا كثيراً من المدن ومن البشر ومن الأشياء. وعلينا ان نعرف الحيوانات. وعلينا ان نحس كيف تطير العصافير وان نعرف ماهي الحركة التي تقوم بها الازهار حين تنفتح في الصباح. ولا بد ان نتمكن من التفكير من جديد في مناطق مجهولة، وفي لقاءات غير متوقعة، وفي رحيل كنا نرتقب قدومه منذ وقت طويل، وفي ايام طفولة لم تتوضّع الغاها بعد، وفي آباء كان لابد من ان نرحب مشاعرهم حين يقدموا لنا فرحاً لا نفهم معناه ولا نقدر قيمته (فرح ماهول لأخرى)، وفي أمراض طفولة كانت تبدأ بدايات غريبة بتحولات عتيقة وخطيرة في أن واحد، وفي أيام قضيت في غرف

حين نعيد قراءة «كُرَّاسَات مالطة لوريد زبريجه»، نعر على ريلكه وراء كل سطر. ريلكه الذي وصفه «رودولف كاسنر» (R. KASSNER) قائلاً: حاجيان مقوسات بشكل دقيق، عينان عميقتا الزرق - عينا طفل أورا - أنف سلافي متصيد. الشاربان أشقران» ويضيف «كاسنر»: «كان ريلكه شاعراً حتى عندما يغسل يديه» وتحدث «ستيفان زفايغ» (STEFAN ZWEIG) عن طريقة ريلكه في «كتف صوته وصوت خطواته». نحن نرغب دائماً في أن يكون عمل الشاعر متوافقاً تمام التوافق مع نفسه، ومع علامات وجهه، ومع طريقته في السير. عندئذ ينشأ انجذاب اليه يتحدّى الموت والزمن. ثمة شعراء لم يكونوا هم حيناً ابدعوا أشهر اعمالهم. غير ان ريلكه كان ريلكه.

انه يجذبنا الى حلم طفولة امضيت داخل قصر على حافة البحر البليط. وهو يرينا الكتب النادرة، والأزهار، وصورة صديقه الاميرة «TURN und TAXIS» ونحن نمضي في رحلتنا هذه حتى نتبته الى ان هناك وجعاً كبيراً يسكن هذا العالم الصامت وان «كُرَّاسَات مالطة لوريد زبريجه» هي كتاب الألم، وفيها تلعب باريس دوراً كبيراً، ذلك ان اكتشاف هذه المدينة سمح لريلكه بان يعانق فيضاً من الاحلام والذكريات القديمة.

(١) في شوارع باريس

هل حقاً يأتي الناس الى هنا لكي يعيشوا؟ أنا أتصور بالاحرى انهم يأتون لكي يموتوا. خرجت. شاهدت مستشفيات. رأيت رجلاً يرتجع ثم يتهاكك على الأرض. تجمع الناس حوله وهكذا جنيوني رؤية ما تبقى من المشهد. رأيت امرأة حاملاً كانت تجرّ قدميها بقل على طول حائط عال وساخن، ومن حين لآخر كانت تذبذبها متلصمة كما لو انها تريد ان تقنع نفسها بأنه اي الحائط - الايزال في مكانه. وكان بالفعل لايزال في مكانه. وماذا وراءه؟ نظرت الى خارطتي: دار ولادة. حسناً. سيساعدونها حقاً لاشيء يمنع من ذلك. بعيداً من هناك، وفي شارع «سان جاك»، ثمة نهاية ضخمة بقبّة. الخريطة تقول انه «فال دي غراس»: مستشفى عسكري. لم اكن بحساسة الى مثل هذه المعلومة. لكن لا يهم. ويسد الشارع بطلق روائع من كل

التخلص منه الا عندما امد ساقى الى ان الامل بها ركية والذي الجالس اسامي [. . .] وكانت هذه اللسنة الخفيفة هي التي تمنحي القوة لتحمل تلك العشاءات الطويلة [. . .] .
جدي كان يسميهم «العائلة» . وسعدت الآخرين يستعملون أيضاً هذه التسمية التعفّية . ذلك انه ، وبالرغم من ان اولئك الاشخاص الاربعة كانت تربطهم علاقة قرابة بعيدة ، فانهم لم يكونوا يكتسبون سوى مجموعة متباينة . العم ، الجالس بجاني ، كان رجلاً عجوزاً بوجه قاس وعروق عليه آثار سوءة علمت في ما بعد انها آثار انفجار بارود . وكان ذو طبع عروس وساح . وقد أحيل على المعاش وهو رتبة أمر . والان هو يقيم في إحدى زوايا القصر التي لا اعرفها ، يتجارب في مجال الخبيثاء . وقد سمعت الخدم يقولون انه على علاقة بسجن من السجن يرسل له مرة أو مرتين في السنة جثثاً يتزوي معها ليلاً نهاراً ، ويسمها ويعدها بحيث انها

صامته ، وفي صباحات على شاطئ البحر ، وفي البحر نفسه ، وفي بحار ، وفي ليالي سفر ترتعش هناك في الاعالي وتطير مع كل النجوم . ولا يكفي ان تعرف كيف تفكر في هذا كله . ولا بد ان تكون لنا ذكريات كثيرة حول ليالي حب لا تشبه الواحدة الاخرى ، واصوات نساء يضعن ، واخرى تضعن ومنم خفيفات ويضاوت . ولا بد أيضاً ان تكون قد وقفنا الى جانب أناس يجتصرون ، وجلسنا قرب اموات في نفس الغرفة ، والشاذة مفتوحة ومنها تأتي الاصوات باستمرار . ولا يكفي ان تكون لنا ذكريات . علينا ان نعرف كيف ننسأها عندما تكون كثيرة وإن نصبر صبراً كبيراً في انتظار عودتها . ذلك ان الذكريات نفسها ليست هذا كله . ان البيت الشعري لا ينتق الا حين تصبح - اي الذكريات - في دماغنا ، اسماً وفيها تلدوب الى درجة انها تتحول الى جزء من مكوناتنا .

(٣) أيام طفولتي

في ذلك الوقت كان عمري اثنا عشر أو ثلاثة عشر سنة على أقصى تقدير . أخذني أبي الى «ايرنكلوستر» (URNEKLOSTER) . منذ سنوات ولم اكن اعرف السبب الذي ألزمه بزيارة جدي . منذ سنوات طويلة ، وبالتحديد منذ وفاة أبي ، لم يلتق الرجلان . وابي نفسه لم يكن أبداً في القصر القديم الذي لم يعتكف فيه الكونت «براه» (BRAHE) الا متأخراً . وانا لم اشاهد مطلقاً بعد ذلك هذا القصر الغريب الذي أصبح ملك أناس غرباء عقب وفاة والدي . وكما أنا اراه من خلال ذاكرتي الطفولية ، فانه لم يكن بناء . يجبل الى انه ذاب تماماً وانتشر في . هنا غرفة اوهناك غرفة اخرى . وهنا جزء من رواق لا يربط بين هذين الغرفتين غير انه يحفظ بذاته كالألوانه قطعة مستقلة . على هذا الشكل كان كل شيء منتشر في . الغرف ، والمداخل التي تنزل لبطء احتفالي ، ومداخل اخرى كما لو انها اقفاص ضيقة تصعد حلزونية الشكل وفي عمتها تقدم كما يتقدم الدم في العروق . وهناك غرف المخايء ، والشرفات العالية ، وسراديب غير متوقعة يلقك فيها باب صغير . كل هذا لايزال في . وسيظل دائماً ، وكما لو ان صورة هذا البيت نزلت في من الاعالي اللامتناهية وتهمتت فوق قلبي .

اعتقد أني لم احفظ في قلبي الا بالقاعة حيث تعودنا ان نجتمع لكي نتناول العشاء كل مساء عند الساعة السابعة . لم اشاهد هذه القاعة خلال البهار أبداً . ولا أتذكر ان لها نوافذ ولا الى أين تفضي . وفي كل مرة ، تدخل العائلة ، كانت الشموع تضيء في شمعدانات ضخمة . وبعد لحظات قليلة ننسى البهار وكل ما كنا قد شاهدناه قبل ذلك خارج البيت . وهذه القاعة العالية والمقوسة حسب ما اعتقد ، كانت الأكثر صلابة . كان سقفها المعتم وأركانها التي ظلت محتفظة بالغاها يمتصان منك شيئاً فشيئاً كل الصور ، دون ان يعوضها بأي شيء واضح وشبهيها . كنا نجلس هناك دون أية ارادة ، ودون وعي ، ودون لذة ، ودون دفاع . كنا كما لو اننا مكان فارغ . وأتذكر ان هذا الغناء الثام نفسي في البداية وبسبب في ضيقاً شديداً ، ضيق شبيه بالذوارم اكن اتكلم من



واينار ماريا ريلكه وصحة والده : (براق ١٨٨٤)

تستطيع ان تقاوم التعفن والانحلال . في المقعد المواجه له تجلس الأنسة «ماتيلد براها» . وهي امرأة لا يمكن معرفة سنها . وهي ابنة عم لأبي . ونحن لا نعرف عنها شيئاً كثيراً سوى انها ترسل بانتظام عالماً روحانياً نفسانياً يدعى البارون «نولد» واليه نرخص طوال الرخص . وهي لا تفعل شيئاً الا عندما تتأكد من أنه راض عن ذلك . وكانت امرأة قوية بطريقة نادرة ومحبية . ولما امتلاء كسول ورخوبيدوانه وضع دونيا عناية داخل ثياب فضفاضة وفاخرة اللون . وكانت حركاتها متعبة وغامضة وعينها مبللتين طول الوقت . غير انها كانت تمتلك شيئاً ما يذكرك بأبي التي كانت جد نحيلة . وكلما تأملتها ، عثرت في وجهها على الملامح الدقيقة التي لم يعد بإمكاننا ان نتذكرها بوضوح منذ وفاة أبي . الآن فقط ومنذ ان أصبحت أرى يوماً «ماتيلد براها» ، أصبح بإمكاننا ان أتقيل كيف كان وجه الميتة . وربما ان اتعرف عليه لأول مرة . والان فقط ، تتكون من مئة ومئة تفاصيل صورة الميتة ، هذه الصورة التي تراقفي

في كل الامكنة . وفي مابعد ، تبين لي بوضوح ان وجه الأنة «ماتيلدة» يجتوي على كل التفاصيل التي تجده وجه أمي . ولكن - وكما لو ان وجهها غريباً انحسر بيني - فانها كان يبدو منفصلين عن بعضها بعضاً ولا شيء يربط بينهما .

إلى جانب هذه الأنة كان يجلس ابن أحد بنات العم . وهو طفل كان في مثل سني تقريباً لكنه كان أقل حجاً وأشد هشاشة مي . كانت رقبته النحيلة والشاحبة تبرز من ياقة صغيرة مغضنة ثم تخفي تحت ذقن مستطيل . كانت شفتاه رقيقتين وملصقتين ببعضهما بعضاً .

أما منخره فكانت دائمي الارتعاش . وواحدة من عينيه الجمليتين والسوداوين تبدوساكنة . وهذه العين تنظر أحياناً باتجاهي يهدو وحزن . أما الأخرى فتظل مثبتة على نفس النقطة كما لو انها بيعت ولم تعد في الحسبان .

في أعلى الطاولة كان هناك المقعد الضخم الذي يقدمه خادم (يدون هذا هو شغله الأساسي) لكي يجلس عليه جدي . غير ان هذا الأخير لم يكن يجلس الا على جزء منه وكان هناك اشخاص يسمون هذا العجزو الأصم والمستبد : «صاحب السعادة» أو «سيادة المارشال» وآخرون لقبونه بالجنرال . وربما كان يملك كل هذه الترتيب . غير انه منذ زمن طويل وهو هامد لا يقوى بأي عمل . ولذا فان هذه الألقاب كانت تبدو بالكاد جلية ومقنعة . وكان يبدو لي ان اي اسم واضح لا يمكن ان ينطبق على هذا الشخص الذي يكون أحياناً واضحاً غير أنه مع ذلك دائم الغموض . وأنا لم اقر البتة ان أسميه جدي بالرغم من انه ابدي في كثير من الاحيان شيئاً من اللطف تجاهي وفي احيان اخرى ناداني بأسمي بشيء من الرقة . وكانت العائلة كلها تسلك تجاه الكونت سلوكاً هو مزيج من الاحترام والحرف [. . .] كنت أقضي كامل اليوم تقريباً في الحديقة وفي غابات الزان او في الاراضي البائرة . ومن حسن الحظ ، كان هناك في «إبرنا كلوسر» كلاب ترافقي . وكانت تتشرفنا وهناك مزارع كان بإمكانه ان اجد فيها حلياً وخيزراً وثيراً . وكنت اتمع بكامل حربي ودون ان افكر في لقاءات المساء حول طاولة العشاء . لم اكن اتحدث الى احد الا مع الكلاب أحياناً . كنت أتفاهم معها بشكل رائع . الكتابة كانت احدي خصائص العائلة . وأنا كنت اعرفها عند الذي ولم اكن اندهش حين لا يتكلم احد اثناء العشاء .

خلال الايام الأولى التي اعقبت وصولنا ، كانت «ماتيلدة» براهه» ثرثرة الى حد كبير . كانت تسأل والدي عن علاقات قديمة وعن اناس عرفاهما في مدن اجنبية . وكانت تذكر أحاسيس ومشاعر بعيدة ، وتتأثر الى حد البكاء عندما تذكر صديقات لها فارقت الحياة وشاباً توحى لنا انه احبها ، وانها ارادت ان تستجيب لحبه لكن دوناً أمل .

وكان ابي يستمع اليها في أدب ويؤيدها من حين لآخر بحرص من راسه ، غير انه لم يكن يجيب إلا على الاسئلة الضرورية . وكان الكونت في مقعده الكبير يشتم طول الوقت

ابتساماً مستعلية ومستحقة ، بينما يبدو وجهه اكثر ضخامة من العادة كما لو انه وضع عليه قناعاً . ولقد تحدث مرات عديدة . وبالرغم من انه لم يكن يخاطب أحداً بالذات ، فان صوته كان منخفضاً . ومع ذلك فان القاعة بأسرها كانت تسمعه . وكان - اي صوته - شبيهاً بالسير المنظم واللامبالئ للساعة [. . .] .

وكان يجثد ان أضحك . نعم ان أضحك عالياً بقوة الى درجة انه لا يمكنني بعد ذلك ان أهدأ . وذات مساء كانت «ماتيلدة» براهه» غائبة . وعندما وصل الخادم العجوز الذي كان بالكاد يبصر ، الى مقعدها مذل الصحن وظل كذلك عدة لحظات ثم انصرف راضياً ومعتزاً كما لو ان كل شيء على أحسن مايرام . تأملت هذا المشهد . وفي نفس اللحظة التي كنت اراقبه فيها شعرت انه ليس طريفاً تماماً .



لو اندرياس ساروي

ولكن بعد قليل وبينما كنت أتأهب لابتلاع لقمة ، صعد الضحك بسرعة الى رأسي الى درجة اني ابتلعها بشكل سيء عدها صخباً كبيراً . ورغم ان الوضع لم يكن محتملاً بالنسبة لي شخصياً ، ورغم اني حاولت بكل الطرق ان أستعيد جذبي فان الضحك ظل يتدفق بقوة الى ان سيطر علي تماماً . وقال أبي محاولاً تحويل الانتباه المسلط على بصوته العريض والمخنوق «هل ماتيلدة مريضة؟» وابتسم الجدة ابتسامته المعتادة وأجاب بعد ذلك ببجملته لم انتبه اليها تماماً بسبب ذلك الوضع الذي كنت فيه . واعتقد انها كانت تعني «ان ماتيلدة ليست مريضة وانها سي انتهت تحاشي لقاء كريستين» لم اكن اتصور تأثير مثل هذه الجملة الا عندما نهض جاري الأمر وفقد القاعة بعد ان حيا الكونت وتلفظ باعتذار غامض . واندهدت حين رأيته يلتفت مرة أخرى حين وصل وراء الجدة وراح يشير برأسه الى «إيريك» الصغير ، وإلى ايضاً كما انه يستحثني على ان نتبعه . وانقطع ضحكي بسبب اندهاشي غير اني لم اهتم بحركات الأمر ذلك ان كان شخصاً مقبلاً بالنسبة لي . ولأحظت ان «إيريك» لم يهتم به هو ايضاً وتواصل العشاء بطيئاً

«ماتيلده». وسرعان ما هذأت، ومع ذلك ظللت مستسلمة للمواساة بالرغم من اني احسست بزوال الخطر. واكيد اني احسست ان تلك الرقعة كانت جد ناعمة غبراني كنت سعيداً بها حتى اني تصورت اني استحققتها. «عمتي» قلت اخيراً محاولاً ان اجمع في وجهها المنتشر امامي ملامح أمي البعيدة والمشتتة.

- عمتي من كانت تلك المرأة؟

- مع الأسف، قالت وهي تنهت بطريقة بدت في مضحكة، انها شقية يالولدي، نعم انها شقية» في صبيحة نفس اليوم رأيت في الغرفة بعض الخدم مشغولين بجمع الحفائيب. وفكرت في اننا سوف نرحل. وبدا لي ذلك طبيعياً جداً. وربما يرغب ابي في ذلك أيضاً. وايداً لم اعرف السبب الذي ابقاه مزيداً من الوقت في «ايرنا كلوستر» بعد تلك الليلة. وهكذا بقينا ثانية اوتسعة اسابيع أخرى في ذلك البيت متمولين نفل تلك الغرائب. وشاهدنا ثلاث مرات «كريستين براها».

لم اكن اعرف عندئذ شيئاً عن قصتها. ولم اكن اعلم انها توفيت منذ وقت طويل، بعد محاضها الثاني الذي انجبت فيه طفلاً عاش حياة تعيسة ومزرعة - لم اكن اعلم انها ميتة. غيران ابي كان يعلم ذلك. هل اراد وهو الذي يمتلك مزاجاً متقدماً وفكراً صافياً ومنطقياً في نفس الوقت، ان يرفض على نفسه تحمل تلك المغامرة وان يمتلك زمام نفسه دون ان يتساءل؟ رأيته - ودون ان ادرك السبب يصارع نفسه واخيراً رأيته وقد سيطر عليها تماماً.

وكان اخر مساء شاهدنا فيه «كريستين براها» لآخر مرة. وفي تلك المرة كانت الانسة «ماتيلده» جالسة هي أيضاً معنا. غير انها لم تكن كعادتها. ومثل تلك الأيام التي اعقبت ووصلنا، كانت تنكلم دون انقطاع مرتبكة من حين لآخر. ودائماً كما انها ذلك الانشغال بتسوية شعرها وتتفقد ثيابها. ثم نهضت فجأة واخفت بعد ان اطلقت صرخة حادة شبيهة بالنواح.

وفي اللحظة ذاتها استدارت نظراتي غصباً عني باتجاه باب ما: ودخلت «كريستين براها». الأمر الذي يجلس بجانبني قام بحركة عنيفة وسريعة تواصلت في جسدي غير انه لم يتمكن من النهوض. وراح وجهه المعجوز والاسمر الموسوم بأنار انفجار البارود ينتقل من واحد الى آخر بينما كان فمه مفتوحاً ولسانه يتلوى وراء أسنانه المتعفنة. ثم فجأة، اخفت هذا الوجه، وتدرج حرج ورأسه الرمادي فوق الطاولة، وعظته يدها كما لو انه اجزاء متناثرة، وبحثه في مكان ما، بدت يدها رخوة ومبقعة. وكانت ترتعش.

وعندئذ اجتازت «كريستين براها» القاعة خطوة خطوة، ببطء تماماً مثل مريض، وفي صمت لم يكن يرن فيه غير صوت شبيه بأنين كلب معجوز. على يسار التمثال القضي المملوء بالترنس، كان يتزحلق القناع الكبير للكونت المعجوز وهو يكسر بانساعه رمادية. رفع كأسه باتجاه أبي. وعندئذ رأيت والدي، في نفس اللحظة التي كانت تمرخلالها «كريستين براها» وراء مقعده، يرفع كأسه بدوره بشيء من الجهد كما لو انه شيء عليل.

وفي نفس تلك الليلة غادرنا «ايرنا كلوستر».

كالعادة. وعندما وصلنا الى نهاية لغفت نظراتي حركة في عتبة اسواق القاعة. حركة حدثت في باب كنت اتصور أنه مغلق دائماً وأنه حسب ما قيل لم يفتح على الدور المسروق. وراح ذلك الباب يفتح شيئاً فشيئاً. وفي حين كنت انظر الى ذلك بشعور جديد هو مزيج من الفضول والانفعال، انبثقت من عتبة الباب سيدة مشبهة القوام، تلبس ثياباً فاتحة الألوان وراحت تقرب منّا. ولست أدري اذا ما أننا قمنا بحركة أو اطلقت صرخة. وحول ضجيج كرسي سقط نظراتي عن ذلك الظهور الغريب، وشاهدت والذي الذي وثب شاحباً كما ميت، ويدها متدلّيتان، وقبضتها مغلوقتان وراح يسير باتجاه المرأة التي راحت تتقدم منّا خطوة بعد خطوة، لا مبالية بأي شيء. وعندما وصلت قرب مقعد الكونت انتفض هذا الاخير، وأمسك بيد والدي، ودفع به باتجاه الطاولة بينما ظلت المرأة الغريبة يبطء وبمبالاة تجتاز خطوة بعد خطوة القضاء الذي فتح لها، بصمت لم تكن تتخلله سوى رعشة بعض الكؤوس، ثم اختفت في باب إحدى الجدران المقابلة للباب الذي برزت منه. وفي تلك اللحظة، شاهدت «ايريك» الصغير وهو يغلق الباب وراء المرأة الغريبة بنوع من الاجلال والاكبار.

ظللت وحدي جالساً أمام الطاولة. وكنت ثقيلاً الى درجة اني شعرت اني لن افهم من النهوض الى ابمساعدة أحد ما. وللحظة ظلت أنظر في الفراغ. ثم فكرت في ابي ولاحظت ان المعجوز لا يزال يمسه من يده. وكان وجهه غاضباً، ومترعاً بالدم، غير ان المعجوز الذي كانت له اصابع شبيهة بمخالب بيضاء كان متشبهاً بيده وعلى وجهه تلك الابتسامة المقيتة، ابتسامة القناع. ثم سمعت انه يقول شيئاً، حرقاً بعد حرف دون ان افهم من فهم معنى الكلمات التي كان ينطق بها. ومع ذلك كانت تضرب سمعي بعنف ذلك اني وبعد عامين، عثرت عليها في اعماق ذاكرتي. ومنذ ذلك الوقت وأنا اعرف ما قاله خلال تلك اللحظات الراهية:

- انت عنيف يا شامبلان. وغير مؤدب أيضاً. لماذا الاترك الناس وشأنهم؟

- الحق؟ صرخ أبي.

- ما ان في ان تكون هنا: كريستين براها.

ومن جديد عاد ذلك الصمت الحاد بشكل غريب. ومن جديد ارتعش الكأس. وفجأة تخلص ابي من مخالب الجذ بحركة عنيفة ثم اندفع الى الخارج.

طوال الليل سمعته يروح ويحيى في الغرفة، ذلك اننا ايضاً لم افهم من النوم. وعند الصباح، استيقظت فجأة من نعاس خفيف، وبفرع شل اعصابي وقلبي، ورأيت شيئاً ابيض جالسا على الفراش. ومنحنى اليأس شيئاً من القوة مكتني من اخفاء رأسي في الاغطية. ومن شدة الملح انفجرت، باكياً. واحسست بطفن وبصفاء فوق عيني الباكيتين غير اني اغمضتها لكي لا ارى شيئاً. لكن الصوت الغريب الذي كلمني، لاس وجهي بدف لذيذ. وعندئذ عرفته: لقد كان صوت الانسة

ست قطء

راينار ماريا ريلكه

(١) وحدة

الوحدة مطر: انها تنبثق من البحار
وتصعد باتجاه المساءات .
تنبثق من السهول البعيدة والمنزوية
وتصعد باتجاه الساء التي تمتلكها دائماً
ومن الساء تسقط فوق المدينة .

هي تساقط مطراً في الساعات المريبة
عندما تفتح على الصباح كل الشوارع
وعندما لا تجد الاجساد شيئاً ،
وكثيرة وخاتبة تتباعد عن بعضها بعضاً ،
وعندما في نفس الفراش يضطر
كائنات يتباغضان أن يناما
عندئذ تمضي الوحدة مسيرة الأنهار . . .

(٢) رودان

لاطفولة له ولا عمر .
طفولته كانت شباب الأحجار
وسته ليس له .
الذي يتكرر الأشكال
وحيد بين اشكاله
في يديه تضطجع التربة
أشياءه كما نجوم تدور من حوله
محيطه اياه بالأشياء .
لقد بنى جواره
ثم ابتكر أفقاً .

(٣) بوذا

كما لوانه يصغى . صمت: من مكان بعيد . . .
نحبس أنفاسنا ولا نسمعه .
انه نجمة . تحيط به كواكب كبيرة
نحن لا نراها .

(٤) الشاعر

أيتها الساعة ، ها انت تهجرينني وتبتعدين عني ،
صخب جناحك يمرقني .
وحدي : ماذا ترى افعل بصوتي
ويليلي؟ وينهاري؟
لا حبيبة لي ولا بيت
ولا مكان الجأ اليه أو أعيش فيه
كل الاشياء التي أحبها نفسي
تغتني ثم تهملني .

يدي لم تعد تعرف غير حركة،
أن تطرد دونها جدوى
الروطية التي تنزّ من الصخور.

انا لا اسمع غير هذا الماء الذي يضرب كما المطارق
ومع القطرات التي تتساقط
يتوحد قلبي ومعها يضيع .
تري هل تسقط باكثر سرعة،
فالبيد الوحش على أية حال .
في مكان ما تنزل العتمة
غير اننا لا نعرف شيئا عنها .

تصور أن ما هوساء وريح : الآن،
وان ماهو هواء لفمك، وصفاء لعينك،
يتحول فجأة الى صخرة محاصرك وتضغط عليك
في الفضاء الضيق هناك حيث قلبك ويداك،

وان مايسمى الان غد بالنسبة لك
ثم : في مابعد السنة القادمة،
وهكذا لن يكون الا جرحاً متقيحاً فيك،
جرح يتقيح طول الوقت ولا يبرأ أبداً .

وان ما كان سيكون كاذباً ومزيفاً
وفي كل جزء فيك ينتصب،
مالاً يزيد الضحكات .

القم المحبوب الذي لم يضحك أبداً
وان ما كان الله لن يكون غير حارسك،
ويبحث، ويعين مائة يسد آخر فتحة .
غير انك ستعيش على أية حال .

كان يصعد تحت الاغصان الداكنة
رمادياً وذائباً تماماً في حفل الزينون
موارياً جبهته المعفرة بالغبار
في الغبار الآخر لليدين الساخنتين

مرة أخرى هذا الشيء . ثم النهاية .
والآن، اعمى، على أن أسير
ولماذا تريد ان اقول لك من انت
في حين أنني لم اعد أجد نفسي .

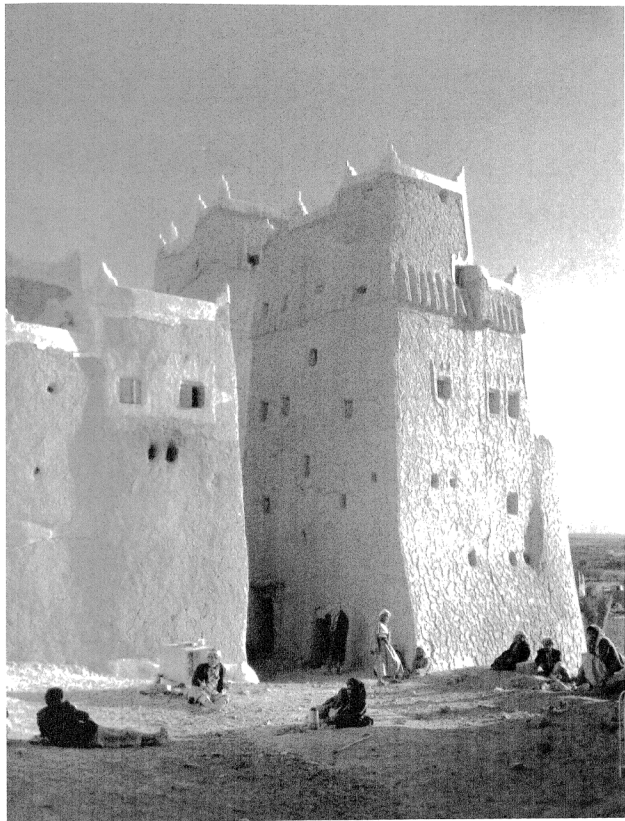
أنا لا أجدك . ليس في .
ليس في الآخرين . ليس في هذه الصخرة .
انا لا أجدك . انا وحيد .

أنا وحيد مع شروق كل البشر
التي حاولت من خلالك أن أخفف منها،
انت الذي لا توجد . أه بالملجأ الذي لا اسم له . .

في مابعد، يأتي ملاك، هكذا قيل .
لماذا ملاك؟ أه ولكن الليل هو الذي أتى
ولا مبالياً راح يدمدم بين الاغصان .
المريدون راوحوا يتململون في أحلامهم .

لماذا ملاك؟ أه لم يكن غير الليل .
الليل الذي اتى كان شبيهاً بالليالي الأخرى التي تعبر بالثلاث .
وفيه تنام الكلاب والأحجار .
ليل حزين . ليل عادي
ينتظر قدوم الصباح .

ذلك أن الملائكة لا تأتي بجانب متبهلين كهؤلاء،
والليالي لا تتحمس لها أبداً .
الذين يتيهون يفقدون كل شيء،
واباؤهم يبهونهم هدايا
وعن أحضان امهاتهم يبعدون .



ندوة حول جون بول سارتر في مدينة فرانكفورت

مثقفون ألمان مرتابون أمام سارتر

الذي يعد اليوم واحد من أهم وأعمق الفلاسفة الألمان، فقد قرأ سارتر بعمق. ولذا فانه قدم محاضرة هامة حول فكره وأسلوبه الفلسفي. وبين ممثل «مدرسة فرانكفورت»، هاربرت شنادلباخ (HERBERT SCHNÄDELBACH) بدقة ونزاهة متناهيين، كيف ان كلا من «هوركهايمر» (HORCKHEIMER) و«ادورنو» (ADORNO) تجاهل سارتر بالرغم من أن هذا الأخير كان خلال السنوات الخمسين والستين قد قام ببحوث جعلته قريباً من «النظرية النقدية». وبالمقابل تجاهل سارتر «مدرسة فرانكفورت» وظهر نحوه لآماله كاملة.

أما «بوتريك» الفيلسوف الألمانية الحالية، «هانس غيورغ غادامر» (HANS-GEORG GADAMER)، مريد هيدغر، والبالغ من العمر ٨٧ عاماً والذي نزل من مرتفعات هايدلبارغ لحضور الندوة المذكورة، فقد أثنى الحاضرين حين روى اليهم كيف قرأ لأول مرة، وكان ذلك عام ١٩٤٦ كتاب «الوجود والعدم» وقد اعترف غادامار بأهمية هذا الكتاب الذي كتبه صاحبه تحت تأثير الفلاسفة الألمان الثلاثة: هيغل وهومرل وهيدغر، بالرغم من انه يبدو غريباً عنهم تماماً.

يبقى ان نتساءل عن معنى هذه العودة الجديدة لسارتر وفكره. والتفسير الاقرب الى الصحة هو ان الجيل الجديد من الخضر تعب من النظريات التي تأثر بها في البداية وهو الان يبحث عن نظرية تتجسد فيها الحرية الحقيقية ثم ان الفلاسفة الألمان الجدد لم يجدوا في نظريات هايماس وغيره ما يجيب بشكل واضح وكافي عن الاسئلة الجديدة. والبعض منهم أصبح يجد في فلسفة سارتر ما يرضيه وما يشبعه أيضاً.

بين ٩ و١٢ يوليوس من السنة الحالية، عقدت في مدينة فرانكفورت ندوة هامة حول سارتر فيلسوفاً ومفكراً، حضرها ألف ومئتي شخص أغلبهم شبان أتوا من جميع أنحاء ألمانيا، وقد كانت هذه الندوة حدثاً ثقافياً متميزاً أكدت ان سارتر، خلاف ما يعتقد البعض وخاصة في فرنسا لا يزال حاضراً، وانه لا يزال يحظى بنفس الأهمية التي حظي بها بعد الحرب العالمية الثانية أي في فترة ظهور الوجودية، وخلال الستينات والسبعينات حينما وقف مدافعاً عن حركة الشيبة اليسارية وبخاصة عن انتفاضة الطلبة في مايو/ ايار ١٩٦٨. بعض المثقفين الألمان الذين اشرفوا على الندوة فاجأهم العدد الهائل للحاضرين، بل ان البعض منهم أصيبوا بالدهشة وآخرون اغتاظوا قليلاً ذلك ان الندوة التي سبقت ندوة سارتر والتي نظمت في نفس المدينة حول فكر «ادورنو» (ADORNO) الذي يعد من أهم ممثلي مدرسة فرانكفورت لم تجلب اليها سوى ٥٠٠ شخص فقط! ومن الجدير بالملاحظة ان الندوة دارت دون حضور أي مفكر أو فيلسوف فرنسي.

الفكرة التي انطلقت منها الندوة هي تمكين الفلاسفة الألمان الحاليين من قراءة سارتر ومن ابداء آرائهم حول فكره وفلسفته. ولقد خصص الفيلسوف «يورغن هايماس» (J. HABERMAS) دروساً خلال السنة الدراسية المنصرمة حول كتاب سارتر الشهير «نقد العقل الجدلي». غير انه خلال الندوة اعتذر عن تقديم مساهمة ذلك انه لا يزال حسب رأيه بطبيعة الحال غير متالف مع الفكر السارترتي. ومع ذلك، فان حضور «هايماس» كرئيس للندوة المذكورة أشتت الأفكار وحفز على الجدل والنقاش. أما الفيلسوف «مانفريد فرانك» (MANFRED FRANK)



حوار تحت شجرة كستناء

(حول اللقاء بين الشاعر الفرنسي رني شار والفيلسوف الوجودي مارتن هيدغر)

جون بوفري

مقدمة:

أختلفت باريس وعدة عواصم أوروبية - من بينها مدينة ميونيخ - بمرور ثمانين عاماً على ميلاد الشاعر الفرنسي الكبير رني شار الذي قرّر منذ سنوات طويلة الابتعاد عن الأضواء، مفضلاً العزلة التامة في بيت جدّه في قرية «ليس سيرسورغ» (LILLE-SUR-SORGUE) الفرنسية. وبهذه المناسبة تقدّم «فكر وفن» لقرائنا الاعضاء نصّاً يتحدث فيه الفيلسوف الفرنسي «جون بوفري» عن اللقاء الذي تم بين الشاعر رني شار والفيلسوف الوجودي مارتن هيدغر، والذي دار خلاله حوار طويل حول العلاقة بين الشعر والفلسفة.

تحت أغصان شجرة كستناء في «مينيلمونتون» (MENILMONTANT)، تحدث فيلسوف وشاعر عن نفسيهما وعمّا يعرفانه. مارتن هيدغريوني شار يتعلّان لغة حوارهما. باريس تعيش راحة العطلة. نحن في عام ١٩٥٥. «خلال زيارتي إلى فرنسا - كتب هيدغر - ساكون سعيداً إذا ما أنا التقيت جورج براك وري شار».

لا شيء أكثر غاطرة من مفترق الطرق. ولكن، والليل الصيغي ينزل:

«هناك على الطاولة

حيث يتوهج النور الصافي، الخبز والخمر» وبرغم اختلاف الحياتين واللغتين، ثمة تفاهم حصل بين الفيلسوف والشاعر. انه حوار الشعر والفكر.

الفكر، في عمق أعماقه حوار. انه يسعى من خلال الحوار ان يحدّد موضعه مع الباحثين عن موقع والذين هم المفكرون منذ البداية. ارسطو هو من البداية الى النهاية حوارهم مع افلاطون. والحوار الميخيلي هو محاولة للانفتاح على كلّية الكلمة. غير ان الكلمة ليست فقط كلمة الفكر. الاكثر قدماً من كلمة الفكر، الكلمة الشعرية. كلمة هوميروس التقطت الجوهر في قبل هيرقليطس. انها تأسيس لعالم جديد الذي هو العالم الاغريقي والذي شهد مولد الفلسفة. وقبل الفلسفة بفترة طويلة، فتحت الكلمة الشعرية الفضاء الذي فيه، كما يقول هيزود، واجهت الالهة البشر. ولكن لماذا الكلمة هي اكثر اقتراباً من الفكر منها للشعر؟ ومن أين لها هذه الازدواجية؟ كل ما هو بروز بلنذ بالتخلص

والانكماش هكذا يقول لنا هيرقليطس. والسؤال يظل دونها جواب وعلى الاكثر، نحن نحاول ان نتوافق مع ازدواجية الكلمة. ان تتوافق يعني اننا نلج ابعاد الحوار. الحوار لا يحاول البتّة ان ينقص من قيمة الآخر، كما تفعل احبانا الفلسفة بالنسبة للشعر وذلك باستعماله مادة لتفسير افكارها ومدلولها. ان الحوار الذي نقصده هو ذلك الذي يجرّس ان يبقى الآخر كما هو. يقول شار عن هيدغر «لاؤل مرة لم يحاول رجل كهذا ان يُفسّر لي من أنا وماذا افعل». كان هيدغر يستمع اكثر مما كان يتكلّم. ومن هذا الاستماع الذي يصل الى حدود الصمت ولدت إمكانية التوافق دونها جواب، ذلك ان الجواب كان قد حوّل ما هو موضوع للتفكير الى مشكلة، اي كما يوضح ذلك ليهنتر الى مقترح، ترك جزء منه في البياض. . . تماماً مثلنا نحن نطلب مرآة تتمكن من جمع أشعة الشمس في نقطة واحدة. الشاعر هو بالفعل، هذه المرآة، ولكنه ليس اطلاقاً «للطلب». واذا ما هو حرص دائماً على التخفي، فلأنه خطر بالنسبة للفكر، غير انه خطر صحي. «ثلاثة أخطار تهدّد الفكر.

والخطر الرابع هو منذ ذلك الوقت صحي، انه بجوار الشاعر وهو بالقرب من نشيده أيضاً.

الخطر المساك هو أكثر الأخطار حدّة وقسوة. انه الفكر نفسه. عليه أن يفكر مسابراً متحدراً مندبراً في ما لا يعرفه إلا نادراً. أمّا الخطر الضار والمُسدّ فهو الذي يخلط ويشوش كل شيء. وأعني به التفلسف. ».

هكذا يجتد هيدغر نفسه لما تتغير الريح فجأة، مزججة في اخشاب البيت، ولما يصبح الطقس رديئاً.

اذا ما كان الشعر والفكر قريبين من الكلمة، فانه ليس على الشاعر ان يظل على الأقل بالنسبة للمفكر الطرف الآخر من حوار مخفوف بالمخاطر، يفرض على الفكر تحفظاً نادراً. يقول هيدغر: «الحوار مع الشعر، اذا ما كان حواراً ينطلق من الفكر، يهدّد دائماً بتشوش الكلمة الشعرية عوض ان يترك لها غذوية صوتها». وأكثر غموضاً هو الحوار بين الشاعر والشاعر. هكذا هولدرلين في «هامبورغ» (Homburg) في ترجمات «أوديب» و«انتيجون» وفي الملاحظات التي تبص هذه الترجمات، في حوار مع سوفوكل. وهكذا نحاور «رويسار» مع الشعراء الاغريق تماماً مثلنا نحاور «راسين» مع «أورييد» و«فيكتور هوغو» مع «فرجيل». وهكذا نحاور

«رن شار» في «البحث عن القاعدة والقصة» مع «سالارمي» و«بولير» و«رامبو» وغيرهم...]

ولكن لا تسمح محاولتنا الحوارين، الذي هما كما يجدهما هيدغر، حوار الشاعر مع الشاعر، وحوار الفكر مع الشعر، بمحاولة ثالثة هي حوار الشعر مع الفكر؟ لا يقول هيدغر شيئاً بخصوص هذا الموضوع. أما «شار»، فيسعى دون أن يوضح إلى إصرار الاضطراب التي يمكن أن تنجم عن ذلك. التبريد أحياناً خلال تاريخه كما لو أنه متحالف مع مهنة الفكر. ودون أن يتخلى الشعر على أن يكون نفسه، عرف كيف يتنكر الفن الذي يؤمله أن يفكر في مسائل ومواضيع مختلفة. كذلك كانت قصيدة بارمينيد، ويندار، وماذا عن هيرقليطس؟ أن كلمة هيرقليطس تضرب في القلب دون أن تغفل ما قبل الهدف ودون أن تضيق في ما وراء الكواكب...]. ثم جاء عصر أصبح فيه الشاعر طفلياً بالنسبة للفيلسوف. ومنذ ذلك الوقت قام السؤال التالي: كيف يمكن للشعر أن يتجاوز مع الفكر؟

الفكر في أيامنا لغة حزينة لا يجيها إلا الجدل من حين لآخر. لهذا، لا يجيد الشعر إذا ما طمح في التحوار مع الفكر، في الفلسفة الحالية شيئاً ذا أهمية. وهذا كان خطأ السوربالية التي اعتقدت أن الانفتاح على الفلسفة الحديثة ممكن، وربما يساعد على خلق نتائج جديدة. يقول هيدغر: «من العلم إلى الفكر ليس هناك ممر». ليس أمامنا إلا أن نتغفر. والفلسفة ليست الفكر. أنها فقط - وهكذا يجدها هيغل - طريقة خاصة للفكر، بها يصبح الفكر معرفة، أي معرفة من خلال المفاهيم. هذا هو الفكر كفلسفة. أن تكون بالنسبة هيغل، الشكل المكتمل للفكر، هذا واضح، ولكن هل هذا الموضوع كاف في حد ذاته. ليس هناك فكر عميق دون أن يكون فلسفياً (هيرقليطس على سبيل المثال)، أو مثلاً يصف هيدغر في «رسائل حول الانسانية»، مسرحيات سوفسوكل. إذن، ليس أن يغوص في الفلسفة، لكي يصبح الفكر عميقاً، وإنما حين يتخلص منها. وعندئذ يصبح تعبير هيدغر «تحليلاً للفلسفة» غير أننا لا بد أن نفهم كلمة «تحطيم» حسب المعنى الذي يمنحه إيساهارني شار في البيت التالي: «وأخيراً، إذا ما أنت أردت أن تحطم فليكن أن تحطم بأدوات زفافية».

والذي لا يغسّر نفسه، لا يمكن أن نتعلم شيئاً. والحكمة ليست جاهزة طول الوقت. انها لا تحضر إلا عند اشتداد الأزمان. ودون يأس أو تشاؤم، ودون أن تكون مدينة للانسان بشيء، ودون أن تكون متحررة من أي قلق، هي تريد لنا الخير وتستحسننا. القدماء عرفوا حكم «إبيقراط» وأصلوها لنا. وإذا ما كان اللقاء الشعر والفكر عند «شار» هو حكمة فلا تأمل ونلازم زمن اليأس الأقصى والأمل الذي دوناً سبب، الزمن الذي لا يمكن أن يؤصفه.

إن البون الشاسع بين الشعر والفكر ربما يكون بسبب وجود الشعر من قبل بينا الفكر كما يشرع بعد في التفكير. أوبالآخرى لم

يبرز الفكر إلا لكي ينحرف في الحبال إلى فلسفة، أي إلى ميتافيزيقيا. الحوار مع الشعر لا ينطلي إلا من فكر بالكاد يكون ممكناً وهذا الفكر يمكن أن يكون عندئذ فكرة متخلصاً من الميتافيزيقيا ومن مفاهيمها. ولا يفتح الشعر إلا على مثل هذا الفكر. ان الفكرة التي شغلت هيدغر كثيراً، والتي هي الحوار مع الشعر، اذا ما كان ذلك ممكناً في المستقبل، هي في مقدمتها مع ذلك أقل خبرة حين نتطاول الاستعالي للشعر. غير انه اذا ما انفتح الشعر من جانبه على الفكر، فإن هذا الانفتاح لا يفترض البتة، مثلاً اعتقد خطأ، نزعة أو إعلاء للكلمة الميتافيزيقية. انه بالأحرى التمثل الميتافيزيقي الذي يفجره الشعر حسب رغبته. بويته واحدة هو يسبق الفكر دون أن يتمثل هدفه في أن يتقدمه. يقول هيدغر «ان مصير العالم يعلن عن نفسه في أعمال الشعراء من قبل أن يكون واضحاً وجلياً مثلاً هو الأبر بالنسبة لتاريخ الكائن». ويقول شار: «عند كل أسيار للدلائل والبراهين، يجب الشاعر بصلية من المستقبل». كل ماهو صلبة ينقد ويحيى. وهيرقليطس كان منقاداً من هذا النوع. وإذا لم يتمكن الفكر من أن يتركه وهو في بعده الممتد قبل المرحلة السقراطية إلا من خلال توسط فيه الكثير من المكابدة، فإن الشاعر كان قد استدلل إليه منذ زمن طويل ولما إليه كما يلجأ إلى سقيفة. وهكذا فإن التناقض بين البطء التأمل الذي يفكر مسيراً منحدراً مذبذباً وبين القصيدة السريعة والمتوقفة يجعي تقارباً أكثر سرية. وموضع هذا التقارب هو في مجال واحد، هو مجال الكلمة واللغة التي تتكلم بها...].

يقول «شار» تحت شجرة الكستاناء: «القصيدة بلاذكرة. ما يُطلب مني هو أن أتقدم». وقد قال من قبل: الشعر، من بين كل المياه الصافية، هو الذي يتباطأ كثيراً عند انعكاسات جسوره. وكان هيدغر يعشق هذه السرعة التي يتمثل قانونها في حرق المراحل. وإذا هو لم يكن إلا عند مروره، وإذا هو لا يترك إلا آثاراً، فإن الشاعر مع ذلك ينطلق من أقصى البعيد باتجاه المستقبل. غير أن الانسحاب الذي منه ينشئ السهم لا يكون عمقاً إلا من خلال حياة الحركة التي لا يمكن التحكم فيها. «الشعر الحديث لا يبالد خلفية لا شيء معتم فيها غير سباحها. لا علم يمكن أن يُعرف طريقاً فوق طوف الجليد هذا الذي، منساقاً إلى زواته، يمنح نفسه لنا ثم يستعيدها. غير انه يرشد عيوننا إلى البرق وإلى منابعه المذراة» (رن شار) ان الفكر الذي يصبح أكثر تفكيراً من الفلسفة هو طوف الجليد الذي لا مهمة له غير أن يواجه ويصير آخر غير صبر التاريخ الذي لا يعلم إلا الصحراء. ولكن ما شيئاً شيئاً، وفي ربح انقشاع الجليد، يترجع السكان. والذي لم يكن، يستعيد الحياة. وتشرع كلمة الكائن في الكلام، مجيبة حسب رغبته على كلام الشاعر الذي لم يسبقه إلا لكي يجيب فيها صداً. هكذا التقى، مرة وذات مساء صيف، شخصان مختلفان غير انهما من جنس واحد. والاثنتان متعلقان بوحدة مضيق ذلك انهما لا يتباينان إلا في نفس الهم الذي يحفظ من الكلمات بهدف أن تكون كلمة.

ملاحظة: وقع تصدّف طفيف في

بعض الفقرات وذلك بهدف

تسهيل النص على القراء

كلمة حول الندوة التي عقدت في المركز الثقافي الدولي في مدينة الحمامات

التقارب المتبادل - عن طريق الترجمة

معينة ومحاولات لتقديم حلول لمشاكل محدّدة: ماذا نُترجم حتّى الآن؟ ماذا يُترجم في الوقت الحاضر؟ ماهي المشاكل التي يواجهها المترجمون. لقد قدّم السيّد عبد الوهّاب الدخلي لائحة كاملة بجميع الأعمال الأدبية التونسية في اللغة العربية التي يمكن الحصول عليها بلغات أوروبية. فكون اللغة الفرنسية تحتل مكان الصدارة في هذا المجال لا يدهشنا أبداً. ولكن أن تذكر اللغة الألمانية مرّة واحدة فقط فهذا شيء يُعجّل إلى حدّ ما.

ومن مناطق لغويّة أخرى حاضرت الدكتورة إيزابلا كاميرا دافليثون رومبا عن الوضع في إيطاليا، كما وحاضر الدكتور فينيدريش من بيرن عن الوضع في المناطق التي تسودها اللغة الألمانية. وفي كلتا الحالتين يوجد توازٍ مُلفت للنظر: إنّ الجوّ السياسيّ في كلا البلدين يزيد من صعوبة انتشار أدب عربيّ معاصر فيها. وبكلمات أخرى صريحاً: فإن العرب، وحتى يومنا هذا، لا ينعمن بسمعة طيّبة هناك. ويُضاف إلى ذلك، أنّه حتّى اليوم وفي الأوساط الأكثر ثقافة لا يرد إلى الحائط عند ذكر «الأدب العربي» سوى «ألف ليلة وليلة». فإني حديث عن الأدب العربي يبدأ وينتهي هنا. وبما أنه لا يرد شيئاً، أوكياد، على الصفحات الأدبيّة في الصحف الإيطالية أو في المانيا الاتحادية أو سويسرا من البلدان العربيّة فإن مجال التعريف بهذا الأدب، والذي هو من مقبّوات ازدياد الاهتمام في الموضوع، يصبح ضئيلاً جداً. وعند هذه النقطة أشعلت محاضرتان أخريان عن نشاطات معيّنة بريقاً من الأمل في أن يبنّى تعاون واسع النطاق في مجال ترجمة أعمال أدبية عربية معاصرة وتبشّر حتّى في الحصول على دعم من قبل البلدان العربيّة. لقد وضحت السيّدة ربّتا عرض من المنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم، نشاطات هذه المنظمة، والتي - بالنسبة للترجمة - دعمت حتّى الآن ترجمات إلى العربيّة، إلّا أنّها قد توافقت على دعم العمل الشاقّ للمترجمين والنashرين في البلدان الأوروبيّة دعماً مالياً. أمّا السيّدة ندى عبد الله، فإنها تعمل مع Institut du Monde Arabe (معهد العالم العربي) وهو المعهد الذي لا يزال في مرحلة التأسيس حالياً في باريس، والذي تكاد تشترك في جميع الدول العربيّة بالإضافة إلى الحكومة الفرنسيّة. وهناك، لا تتواجد فقط إمكانيّات استقاء المعلومات - مثل مكتبة وفيديوتيك ومتحف - بل إنّه يُنشر منذ سنتين بتكاليف من المعهد العربي

كثيراً ما استشهد بآبن خلدون في الندوة التي دعا إليها المركز الثقافي الدولي حوالي عشرين شخصاً في أواخر يوليو/ تموز. لم يكن ذلك فقط لأنّ آبن خلدون ولد في الأراضي التونسيّة وقضى فيها جزءاً من حياته أيضاً، بل ولأنّه «عالم الاجتراء العربي»، ولربّما لأنّه كان أوّل فيلسوف عربي في علم التاريخ والذي فكّر في نشأة الحضارة والحضارات والذي أعطى رأيه في علاقة الحضارات المختلفة بعضها مع بعض. إنّ ملاحظة آبن خلدون بأنّ الشعوب المغلوبّة تقلّد الشعوب المتفوّرة في طرق معيشتها وتأخذ عنها الكثير، استخدمت بأشكال مختلفة أثناء الندوة كنقطة انطلاق لأفكار تتعلّق بنشاط الترجمة.

لقد كان موضوع الندوة «الترجمة وحوار الثقافات» والهدف من وراء هذا اللقاء المحمود أن يخدم كمشاهدة أولى للجمع بين أشخاص يهتمّون بمسألة الاتصالات الثقافيّة مع آخرين إمّا يترجمون إلى العربيّة أو منها. وبالإضافة إلى ذلك فلقد تواجد بين الحضور بعض المؤلّفين التونسيّين ممّا أتاح الفرصة أمام الضيوف الغير تونسيّين لاستقصاء المعلومات عن النشاط الأدبي المعاصر في تونس والاطلاع إنشاء علاقات شخصيّة أيضاً.

إنّ تنوع نشاطات المشترّكين واهتمامهم أدّى إلى تنوع مواضيع المحاضرات التي أقيمت. وهكذا تكلم مثلاً الدكتور مسعود صاهرن من الجامعة الأمريكيّة في بيروت عن الدور التاريخي للبنان في الوساطة بين الثقافات العربيّة والأوروبيّة، الدور الذي أخذه لبنان على عاتقه منذ القرن السادس عشر على الأقل والذي لا يزال قائماً حتّى اليوم، وخصوصاً من قبل العديد من العلماء والمفكرين اللبنانيين الذين يعمل قسم منهم في دول غربيّة وقسم آخر حاز على تقدير عالمي.

دون الإشارة إلى بلد معيّن عالجت محاضرة الدكتور جُلّول عرونة التونسيّ نظريات التأثير والتأثر بين الثقافات المختلفة (ابتداءً بفخر الدين الرازي ومروراً بمونتيسكيو إلى هشام جعيط)، وكذلك محاضرة ابن بلده الدكتور أبويعرب المرزوقي الذي عالّج فيها كيفيّة مساهمة نشاطات الترجمة في التقدّم التكنولوجي. وفي مجال الترجمة الحديثة من الأدب العربي إلى لغات أخرى قدّمت - بالإضافة إلى آراء الشاعر المغربي عبد الطيف اللعي عن إمكانيّة ترجمة الشعر من لغة إلى أخرى - أوصاف لأوضاع

وبدعمه المادّي بوارد مجلّدتان من مشروع ضخّم لترجمة الأدب العربي المعاصر.

هنا لربّما يضع المرء ابن خلدون خلفه، ليتبيّ القول، بأن التقليد يحدث بترتيب الرُتب والقوى: الأطفال يقلّدون الوالدين، والرّعية تودّ أن تتصرف كالملوك، والمعلّوبون يأخذون معارف وعادات المتصرّ. وربما ما زال يحدث هذا حتى اليوم في بعض المجالات، التي يسبق البعض فيها البعض الآخر. لقد حدث ذلك فعلاً. وهذا أيضاً بُحث في الندوة في الحماة - بالنسبة للأدب في بداية النهضة العربية، في مرحلة إدماج المؤلفات الأدبية في محيط جديد.

أمّا اليوم فلقد طوّر كل بلد عربي صوته الأدبي الخاص به؛ فهناك المؤلفات التي تتحدث عن البلد، عن الناس فيه، عن تصرفاتهم، عن تفكيرهم؛ عن آمالهم وعن مخاوفهم. أي أنه تظهر اليوم مؤلفات يمكن أن نقرأ ونفهم كمصدر للمعلومات بمعناه الواسع. ولهذا السبب بالذات - وهذا ما يتفق عليه المترجمون من العربية على الأقل - يجب أن يكون في مجال اهتمام البلدان العربية، أن يسمع صوتها أو أصواتها خارج العالم العربي. ولكن لكي يسمع الصوت يجب أن ترجم هذه المؤلفات، ويبدو أن بعض الدول العربية، وأيضاً اتحادات الكتاب أو المعاهد الثقافية الشبيهة بالذي في الحماة، بدؤوا بالاهتمام البطيء الحذر في أولئك الأشخاص الذين، هم وحدهم، يستطيعون إسراع الأصوات العربية خارج العالم العربي - ألا وهم المترجمون.

كيف نتابع المسيرة إذن؟ هذا السؤال طرح في مدينة الحماة أيضاً، ولقد أسير إلى إمكانيّات مختلفة. توجد في الأساس مشكلتان (هذا بالنسبة لجميع الدول الأوروبية): مشكلة المال ومشكلة الاستعلاء واستحضار المواد.

إن مشكلة المال تعني أنه بالنسبة للوضع الحالي، في المرحلة الأولى يكون عدد النسخ قليلاً جداً، ويصعوبة يمكن لدور النشر تحمّل تكاليف الترجمة لوحدها، لذا فيجب الحصول عليها من مؤسسات معيّنة، كما يحدث في دول كثيرة، مثل ألمانيا الاتحادية وسويسرا، التي تقدّم الدّعم المالي لترجمة مؤلفات أديبا القومية إلى لغات أجنبية.

أما مشكلة الاستعلاء واستحضار المواد فتعني أنه لايسهل دائماً على المستعربين الأوروبيين أن يكوّنوا صورة واضحة عن النشاطات الأدبية في الدول العربية المختلفة وأن يحصلوا فوق ذلك على المؤلفات. وهنا يكون من المحبّد جداً، ليس فقط إن تكرر ندوات مثل تلك الندوة في الحماة، بل وأن تستخدم أكثر فأكثر، أولاً لإفصاح مجال التعارف بين المترجمين من مختلف البلدان، وثانياً لإعطائهم المعلومات الكافية عن التطوّرات الأدبية والثقافية العامّة بشكل محدّد.

هل يمكن لأحلام التقارب المتبادل أن تتحقّق أم لا؟

هارموت فينديرخ



اخبار واحداث ثقافية

(الماضي كحاضر). وعبد الغفار شديد من مواليد عام ١٩٣٨ في القاهرة ونشأ في منطقة الدلتا. وموضوع العديد من اعماله في الرسم هو الاهرامات. التي هي رمز للنور والشمس مثله في ذلك مثل قداماء المصريين.

اعمال الفسيفساء البيزنطية في الاردن

تمكن متحف ما قبل التاريخ في ميونيخ وهوتابع للدولة البافارية من تنظيم معرض فريد من نوعه في الحريف وذلك بالاشتراك مع مصلحة الآثار في المملكة الاردنية الهاشمية، معرضاً عن اعمال الفسيفساء الارضية من العهد البيزنطي في الاردن اي من القرنين السادس والسابع بعد الميلاد، وهي شواهد اكتشفت اكثرها مؤخرًا في الاردن.

كان الاردن دأباً من أهم البلاد الساقعة على خط سير القوافل التجارية ويحتوي على آثار تاريخية هامة من هذه الحقبة من تاريخه. ونجد في وقت مبكر جدا مجموعات مسيحية استقرت هناك، تدل على ذلك الكنائس العظيمة باراضيتها المبنية من الفسيفساء الثمين، كما يقدمها لنا المعرض في ميونيخ. وغالبية القطع المعروضة من القرن السادس، من عهد القيصير جوستينيان، المعروف بتشجيعه للفن البيزنطي المسيحي خلال فترة حكمه، بالذات في ذلك الجزء من الامبراطورية الرومانية كمحاولة جادة لحمايتها من تأثير القبائل البدوية وامبراطورية الغساسنة وقد بنيت العديد من الكنائس في هذه الحقبة وزينت بالفسيفساء الثمين. ويقدم المعرض نماذج من هذه الكنائس باراضيتها المميزة. وتتخلل الفسيفساء رسومات من التراث الاغريقي مفسرة حسب تعاليم الديانة المسيحية، منها حيوانات ومناظر للصيد مستوحاة من الحياة الريفية ومشابه ذلك.

ومن الصفات المميزة لفسيفساء في الاردن مناظر المدن واحيايتها، المرتبطة ارتباطا وثيقا باسفار الحجاج، مثال على ذلك ارضية الكنيسة في بلدة مأدبة التي بها صورت على أنها كانت محطلة على طريق الحج.

كان فن الفسيفساء اذا علي مرتبة كبيرة من الارتقاء عندما دخلت الجيوش الاسلامية منطقة الاردن، بحيث طلب السادة الجلد من الفنانين تزيين قصورهم الصحراوية، ونحن نرى

نخضة مصر كقوة عالمية - معرض في متحف (رومر وبلتسيوس) في هيلسهام.

تتسم السنوات ما بين ١٤٠٠ و ١٥٥٠ قبل الميلاد للدولة الجديدة في مصر الفرعونية باهميتها التاريخية لمنطقة الشرق الاذن كلها حيث غضت مصر فيها وأصبحت القوة المسيطرة على تلك المنطقة.

وترتبط هذه الحقبة من تاريخ مصر القديمة باسماء الفراعنة تحتمس الثالث وامنوفيس الاول والملكة حتشبسوت وامنوفيس الثاني. وتعكس آثار وفنون ذلك العصر هذه النهضة بوضوح جلي. ولأول مرة يخصص معرض خاص لهذه الفترة التاريخية الهامة نظمته متحف (رومر وبلتسيوس) * في هيلسهام، وافتتح في ١٩٨٧/٨/٣ على انا يغلق أبوابه في ١٩٨٧/١١/٢٩ وقد خصص المعرض المذكور للامبراطورية الفرعونية التي امتدت حدودها آنذاك لتشمل اراض شاسعة من الاردن ولبنان وسوريا وفلسطين والسودان.

ويقدم المعرض في هيلسهام اكثر من ٣٠٠ قطعة اثرية جمعت له خصيصا من ٢٠ مجموعة للآثار المصرية القديمة، كل واحدة منها ذات شهرة عالمية. (من القاهرة والاقصر وبوسطن ونيويورك وبروكسل وباريس وستوكهولم وفلورنسا وتورينو وبرلين ولايسزج وميونيخ وهانوفر). وتشمل القطع التماثيل والنقش البارز والرسم والحلي المصنوع من الذهب والعقيق والفيروز واللازورد. ونجد بجانب تماثيل الحكام والوثائق الخاصة بهم قطعاً تنعكس فيها الحياة اليومية لرعاياهم، منها الادوات المنزلية وادوات الحرفين والسيارات المختلفة وادوات الزينة والحلي، تعطي صورة عن معيشة الناس العاديين من الحرفيين والفلاحين. ومن أجل القطع المعروفة نموذج طبق الاصل من مقبرة صنفور عمدة طيبة، العاصمة ومركز الحكم في عهد امنوفيس الثاني. وفي جزء خاص من المعرض تقابلنا معتقدات قداماء المصريين عن العالم الآخر على شكل الشواهد والتوابيت، والادوات الفاخرة المصاحبة لصاحب المقبرة في رحلته الى العالم الآخر وكتب الموتى، كلها شواهد على امنية الانسان الفاني في حياة ما بعد الموت.

ويرافق هذا المعرض معرض آخر للفنان المصري المعاصر عبد الغفار شديد المقيم منذ سنوات طويلة في ألمانيا الغربية وعنوانه

حفلاً ضخماً شمل كل جوانب العمل الثقافي من نحت وتصوير وإعمال يدوية وعبارة وفوتوغرافيا والأفلام والمسرح والموسيقى كانت غايته الكشف عن السحر الكامن في هذه العوالم الغريبة.

وقد نظم معرض ضخم في متحف الفنون جذب إليه آلاف الزوار، كما نظم أيضاً إحدى عشر معرضاً في متاحف مختلفة في مدينة شتوتجارت والمدينة الصغيرة المحيطة بها. مع عروض في الأوبرا وبرامج إذاعية وتلفزيونية حول نفس الموضوع. وانتهى الاحتفال بندوة استمرت ثلاثة أيام شارك فيها كتاب وفنانون وعلماء من جميع أنحاء العالم.

كان هدف الندوة الكشف عن السحر الكامن في هذه العوالم الغريبة وتنقله مع قناعة الأوروبي بأن حضارته هي النموذج الأمثل. وهذه القناعة عاقتها دائماً عن الانفتاح على العوالم الغريبة والمؤثرة في مخيلته. وفي عصرنا هذا المتمسك بسرعة وسهولة التنقل بين القارات هنالك أسئلة جديدة تطرح نفسها وخاصة في مجال فهم وتوضيح الروابط الحضارية بين مختلف شعوب العالم. وهذه الأسئلة طرحت في الندوة المذكورة. وكانت فرصة ثمينة للعاملين في الميادين الثقافية والعلمية لكي يتبادلوا الآراء حول موضوع حساس ومقيد.

ونظراً لأهمية الأسئلة المطروحة حول الروابط بين أوروبا وبين العالم العربي الإسلامي فانه في بيتنا أن نتعرض لأهم جوانب هذا اللقاء بين الحضارات والثقافات في العدد القادم من فكر وفن.

أعياهم التي قاموا بها في خدمة امراء المسلمين دليلاً على تواصل هذا الفن العريق، تواصل بدأ في العصر الاغريقي واستمر حتى عصر الحلفاء وبفضله أصبح الأردن جسراً بين القارتين اسيا وأوروبا.

ففي عهد الامبراطور يوسبي (٦٣ ق.م) ضم الاردن الى سوريا، ثم أصبحت تحت حكم تريبانوس (١١١ الى ١١٤م) محافظة مستقلة باسم (ارابيا) وفي النصف الاول من القرن الاول الميلادي استقرت فيه اول مجموعة مسيحية، زاد عددها في عهد القيصر قسطنطين زيادة كبيرة، اما في خلال فترة حكم جوستينيانوس الاول الاول (٢٢٥ الى ٥٦٥م) فازدهر من الناحيتين الاقتصادية والثقافية. وكل القطع المعروضة في ميونيخ من هذه الحقبة التاريخية.

عوالم غربية - تخيلات اوروبية

كان لمعهد العلاقات الخارجية في مدينة شتوتجارت فضل كبير في تنظيم فعالية ثقافية مهمة في الحريف الماضي تحت شعار (عوالم غربية وتخيلات اوروبية) شملت في الفترة ما بين ١/٩ و ٢٨/١١/١٩٨٧ مجموعة من المحاضرات الثقافية والمعارض والعروض المسرحية والموسيقية والأفلام حول نظرة أوروبا الى البلدان والقارات الغربية عليها مع الكشف عن الجذور التاريخية والاجتماعية والحضارية لهذه النظرة وأشكالها المختلفة. وقد ساهمت كل من مقاطعة (بادن فورتمبرج) ومدينة شتوتجارت مساهمة فعالة فيها.

إن الغرب والدخيل والبعيد جغرافيا كان دائماً عامل إثارة خصبة لمخيلة الأوروبي في الفنون والأدب والموسيقى والمسرح وحتى في الفن المعماري. حاول الانسان الغربي أن يخلق لنفسه عالماً جديدة مثيراً باستخدام تلك العناصر الغربية القادمة من بعيد في اعماله وبالذات العناصر القادمة من الشرق. ونذكر هنا بالذات

٥ ومنح (روبر وبليوس) في هيلدهايم من أهم وأشهر متاحف الآثار المصرية القديمة في العالم. ومعرضاته الدائمة مكرمة على آثار الدولة القديمة، أي حقبة بناء الامرات الكبيرة وازدهارها. (٢١٥٠ الى ٢٦٥٠ قبل الميلاد)، افتتح المعرض في هذا العام بعد عمليات تجديد استمرت ثلاث سنوات. ومعرضاتها كلها تقريباً من معارض المولفين الواقعة غرب هرم شوتوبالجر. ويتم شخصيات بارزة مثل الوزير هيرموند، ابن اخ خوفو، الفتش الاول على اعمال بناء الهرم الكبير. ومثاله في هيلدهايم من الحجم الكبير وهو فريد من نوعه ذلك انه التتال الوحيد الذي يجسد شخصاً عابداً.



مهرجان الشعر العربي الاطيالي في جبلينا:

صقلية تحتفل بإضيها العربي

جبلينا قرية صغيرة في جزيرة صقلية، ضربها الزلزال ليلة ١٥ يناير/ جانفي ١٩٦٨. وقد دامت بكمالها. وكان عدد الضحايا ٢٠٠ شخصاً.

وهذه القرية التي تقول المصادر التاريخية أن اسمها مشتق من الاسم العربي «بين الجبلين» تنظم في كل صيف مهرجاناً ثقافياً لمواساة أهلها وتخفيف الألم النكبة التي حلت بهم. وفي هذا العام قررت جبلينا ألا تتغافل عن ماضيها العربي. ولذا نظمت اللجنة الخاصة بالمهرجان ندوة للشعر العربي الايطالي يومي ١٨ و١٩ يوليو الماضي ودعت إليها شعراء ايطاليين وعرباً من الدرجة الأولى. في مقال له صدر عام ١٩٣٣، كتب

غريسيو انطونيو بورجيس يقول بأن سبب مأساة صقلية هي الاصطدام مع افريقيا الذي حدث مرتين: المرة الأولى خلال العصور القديمة أي في عهد قرطاجنة. والمرة الثانية خلال العصور الوسيطة أي عند دخول العرب المسلمين إلى الجزيرة. ويضيف بورجيس قائلاً ان الاصطدام الثاني كان افظع من الأول بل انه اعنف من أي ثورة جيولوجية إذ انه عزل الجزيرة عن القارة. ويختم مقالته هذا بهذا الاستنتاج الغريب: «ان علنا (أي الحضارة الغربية) هزم من طرف «البربرية» الافريقية. غير ان المولم النورمان العربي حسن الحظ حطموها التأثير العربي الاسلامي واعادوا علاقة الجزيرة بالقارة كأمم ما يكون!».

غير ان المؤرخ الفرنسي الكبير بروديل الذي يعتبر أهم متخصص في

تاريخ البحر الابيض المتوسط يؤكد ان صقلية لم تكن دائماً ايطالية حتى في مسترجاتها الفلاحية فالتين الوحيشي والاعف والالسة اتوها من امريكا، واليوكاليبتس من استراليا، والطماطم من البيرو، والباذنجان من الهند، والفلفل من غويانا، والذرة الصفراء من المكسيك، والبرتقال والليمون والسكر وايضا الزرابي، والحري والقطن من افريقيا عند دخول العرب المسلمين إليها. وعلق السرواني الفرنسي المعروف «دومنيك فارنوندز» صاحب رواية «في يدي الملاك قصة حياة بازوليني الفائزة بجائزة غونغيور عام ١٩٨٣، على كلام بروديل قائلاً: ومن الاكيد ان العرب جعلوا الجزيرة تعيش فترة رخاء وسعادة، ليس فقط لانهم ادخلوا إليها النظافة الجسدية وفن الزراعة وتربية الخيول وانما لانهم جلبوا معهم علماً جديداً في الاشكال والمواد والالوان والروائح.»

والندوة الشعرية التي انتظمت في جبلينا اكدت بطلان رأي بورجيس، وجعلت الصقليين والشعراء الايطاليين الذين حضروا الندوة يقتنعون بأن العرب لم يتركوا لهم البرتقال والليمون والحري وانما ايضا الشعر.

وقد قال ادونيس معلقاً على هذه الندوة: حين استمعت الى الشعراء الايطاليين يقرأون الشعر العربي باللغة الايطالية شعرت اني عربي وايطالي في نفس الوقت، وان الاخير ليس الا اسماً للذات لكن بلغة أخرى. فالشعر يخلق في الانسان الاحساس بان وجوده لا يتحصر في هويته، وبأنه هو نفسه وغيره. وهو على هذا المستوى يوحد بين البشر، فيها وراء اختلافاتهم القومية والايديولوجية. وقد اعطى لشعوري هذا بعداً خاصاً كوننا استمعنا جميعاً ونحن بين أحضان البحر الابيض المتوسط اتنا من حضارة واحدة، وكأننا نستعيد لحظة شعرية من تاريخ هذه الجزيرة حيث كان الشعراء العرب يشدون قصائدهم في الجلسة نفسها الى جانب الشعراء اليونان والسلاطين في بلاط

فريدريك الثاني وابنه مانفريد من ملوك النورمان. هكذا بدا لي ان الحوار بين الشرق والآخر، بين الشرق مثلاً هذه اللحظة بالعروبة، والغرب مثلاً بايطاليا، جوهرى فضروري كهذه العناصر التي تتشكل فيها الطبيعة: الهواء والضوء والماء والثراب. في هذا الضوء نذكر اليوم أكثر من أي وقت مضى ان شعوبنا فيها وراء اختلافاتها، وفيها وراء التقنية الحديثة ايضاً، شيئاً واحداً مشتركاً وموحداً ودائماً انه ذلك الشيء الذي يؤسس الشعراء كما يقول هولدرلين وهو ما يتجسد في الابداع الشعري.

كيف نظمت هذه الندوة؟

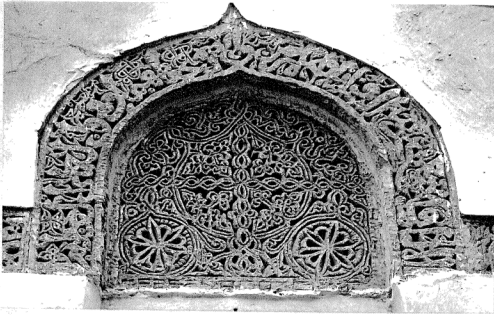
الفضل يعود الى الالسة فرانسيسكا كاراوا التي تتقن لغات عديدة من بينها العربية. وهي ابنة رئيس بلدية قرية جبلينا. وقد تعلمت العربية في روما ثم في القاهرة واطلعت اطلاقاً جيداً على التراث الشعري العربي القديم والحديث. وفيه كتبت دراسات متعددة. ومنذ سنوات اهتمت بالشعراء الصقليين العرب من امثال ابن حديس وابن السري ومحمد ابن القطاع وابن الطويي والتميمي واسو علي الحسن وغيرهم. وكانت رغبتها في تعريف الشعراء الطليان بهم واطلاعهم على جانب مجهول من ثقافة صقلية القديمة.

تقول فرانسيسكا كاراوا: لقد درست في الجامعة الامريكية بالقاهرة وحضرت محاضرات سهر القباوي والدكتور سكوت والدكتور بدوي وغيرهم. في القاهرة بقيت سبع سنوات. وهناك استطلعت اطور معرفتي بالثقافة العربية عموماً وبالشعر العربي قديمه وحديثه بطبيعة الحال. كتبت عن المتنبي وايضاً عن طه حسين وعن عباس محمود العقاد كما كتبت عن الشعر الحديث وعن الرواية الحديثة. وآخر دراساتي كانت حول جحا العربي وجحا الصقلي. انت تعرف ان هذه الشخصية هي من اطرف شخصيات الثقافة الشعبية في صقلية تماماً مثلها هو الحال عندكم في العالم العربي. وهناك كتاب صقليون

نظمت المكتبة الملكية في كرينهاجن معرضا لتخليد ذكرى كارستن نيبور، بدأ الاعداد لها في صيف عام ١٩٨٤، بمناسبة زيارة الملكة مارجريت الثانية ملكة الدانمارك للمملكة العربية السعودية. ووضع كتالوج المعرض في مدينة (كبل) عاصمة مقاطعة (شليزفيج - هولشتاين).

في الفترة الراهنة من امثال زونزوتي وماريو لوتزو وشالوبا وفيغياني وبورتا وفورتيني وغيرهم وطلبت منهم صياغة تلك القصائد شعريا. وهكذا بدأوا في انجاز هذا العمل الذي اعتبرته الصحف الايطالية واحدا من أهم الاحداث الثقافية لهذا العام. معرض تخليدا للذكرى العالم الرحالة كارستن نيبور

عديدون كتبوا عنها. وفي هذه الدراسة قمت بمقارنة بين هذين الشخصيتين. عندما عدت الى ايطاليا رغبت رغبة شديدة في تعريف الايطاليين بالشعر العربي. وأول عمل قمت به هو اني قمت بترجمة أولية لقصائد شعراء صقليون عرب، وعرضتها على اكبر شعراء ايطاليا



تعاليمها الاساسية وقيمه ونواميسها، والشعائر السائدة في كل منها والسلوك الديني اليومي للمؤمنين بها. مع تصوير هذه المبادئ الاساسية في علاقة كل دين منها بالآخر وتفهمه له، مما يساعد على تقييم زهنا في اطار الدين الواحد من ناحية ومقارنتها بالاديان الاخرى من ناحية ثانية مع ابراز نقاط الاتفاق والفرق بينهما. .

وقد نتجت عن الفوارق بين الاديان الثلاثة طوال التاريخ لا مساجلات لاهوتية وفقهية فحسب وانما ايضاً حروب واشتباكات ذات اشكال متنوعة. وبحلول هذا الكتاب ان يساهم في توطيد القناعة بأن لكل اهل الكتاب الحق في الحياة.

ومحور هذا المعجم، عادل تيسودور خوري (من مواليد ١٩٣٠ في تبرين بلبنان) استاذ لعلم الاديان في جامعة مونستر الألمانية.



Isma'il Raji al Faruqi: Judentum, Christentum, Islam. Triolog der Abrahamitischen Religionen. Aus dem Amerikanischen von Anton Joseph Dierl. Dayenli, Frankfurt am Main 1986

اسماعيل راجي الفاروقي: اليهودية والمسيحية والاسلام. حوار ثلاثي بين الاديان الابراهيمية. ترجمه عن اللغة الامريكية انطون جوزيف ديرل. دار النشر، فرانكفورت ١٩٨٦.

غاية هذا الكتاب هي ايضا ان يكون جسراً بين البشري ذوي الحضارات والاديان المختلفة محاولاً تخطي المواقف المتناقضة عن طريق الحوار. ومؤلفه اسماعيل راجي الفاروقي كان حتى وفاته في عام ١٩٨٦ استاذاً للدراسات الاسلامية في جامعة (تيمبل) في فيلادلفيا بالولايات المتحدة. وساهم علماء من الاديان الثلاثة في تأليف الكتاب بمقالات ودراسات حول دينهم وتصوره للعالم ونظامه كل من المطلق الخاص به.

خلافاً ان هذه الحضارة العربية - الاسلامية واجهت ازمتاً داخلية وهزات من الخارج على مدى التاريخ، من بينها انتقال مركز السلطة من مكان الى مكان على فترات متباعدة اومتقاربة من البداية من شبه الجزيرة العربية الى سوريا، ثم الى العراق وبعدها الى مصر بل والى اقطار اخرى.

ومن بين الازمتات التي اضطرت الحضارة العربية الى التصدي لها الغزو المغولي للامبراطورية الاسلامية في القرن الثالث عشر وهو اول تحدٍ جذري لها من قبل قوة غير اسلامية، اما التحدي الثاني الذي واجهته وما فتئت تواجهه فهو النفوذ الاوربي الغربي الذي اجتاحتها في اواخر القرن الثامن عشر وبمحاوّل اخضاعها حتى بعد انحلال الدول الاستعمارية. وشدّد المؤلّفون على أن هويّة العالم العربي الاسلامي وسياساته مازالت واقعتين تحت هذا التأثير.



Adel Theodor Khoury: Lexikon religiöser Grundbegriffe. Judentum- Christentum- Islam. Verlag Styria, Graz, Wien, Köln 1987. 1175 Seiten

عادل تيسودور خوري: معجم المفاهيم الدينية الاساسية. اليهودية والاسلام والمسيحية. دار النشر (ستيريا)، جرتس فيينا. كولون ١٩٨٧. ١١٧٥ صفحة.

من السلمات المميزة لوقتنا هذا الاهتمام المستجد بالقضايا الدينية، يصاحبه الوعي بضرورة الحوار بين الاديان المختلفة. والاديان السابوية الثلاثة، اليهودية والمسيحية والاسلام، التي طبعت تاريخنا وحضارتنا بطابعها ومنها يتوقع الانسان في الغرب وفي الشرق على السواء ان تعطيه الاجابة حول معنى حياته وغايتها وحول امكانياته في السيطرة على حاضره والتخطيط العقلائي لمستقبله.

ويعطي هذا المعجم للقارئ المهم معلومات موثوقة بها حول مبادئ تلك الاديان الثلاثة، بوصف اسمها البارزة في مقالات مستقلة منها مقالات حول

Ulrich Haarmann: Geschichte der arabischen Welt. Unter Mitwirkung von Heinz Halm, Barbara Kellner-Heinkel, Helmut Mejcher, Tilman Nagel, Albrecht Noth, Alexander Schölch, Hans-Rudolf Singer, Peter von Sievers. Verlag C. H. Beck, München 1987, 720 Seiten.

اولرش هارمن: تاريخ العالم العربي. بالاشتراك مع هالينس هالم وبربارا كيلنر- هاينكل وهلمسوت مايشر وتيلان ناجسل والبرشت نوت، والكسندر شولش وهانس - رودلف زينجر وبيتر فون سيفرس.

دار النشر بيك، ميونيخ ١٩٨٧، ٧٢٠ صفحة.

هذا هو العمل الثاني لمجموعة من علماء التاريخ الثبان حول العالم العربي، بعد صدور كتاب (الاسلام المعاصر)، نشره فيرنر انده وأودو شتاينباخ في دار النشر (بيك) في ميونيخ. ومن السلمات المميزة لهذه المحاولة القيمة ان هؤلاء العلماء المتتمين الى الجيل الجديد من المستشرقين يرسمون صورة للتاريخ العربي متعددة الجوانب وشاملة في ذات السوق حتى يقترب هذا العالم وتاريخه من اذهان الجمهور العريض.

ومحور الكتاب وهو اولرش هارمن (من مواليد عام ١٩٤٢) استاذ للدراسات الاسلامية في جامعة فرايبورج، والكتاب الاخرون المشاركون في اصدار هذا العمل القديم، جميعهم استاذة للتاريخ وللدراسات الاسلامية في جامعات المانية شتلفة.

ويشمل نطاق المؤلف التاريخ العربي منذ القرن السابع الميلادي أي منذ بروز العرب كعامل مؤثر في مجرى تاريخ العالم، وحتى تكوين الدول العربية في القرن العشرين. ومن الناحية الجغرافية فان الشرق الاذن والغرب يتبؤان موقعاً محوريا في هذا العمل، فتجد دراسات ليست فقط حول التاريخ السياسي وانما ايضا حول التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وحتى مقالات عن الحضارة العربية وحقيها المختلفة، يتضح من

الارتباط بالطبيعة والتواضع وعبية الغريمو
منتشر كمدب خارج تركيا في سوريا
ومصر والبناتيا وبين المهاجرين الأتراك في
أوروبا الغربية.
يقدم هذا الكتاب لأول مرة نظرة
شاملة باللغة الألمانية عن أصول البكتاشية
العلوية وعن شعائرها ونظرتها إلى الأمور
الدينية والدنيوية.



Alev Tekinay: Über alle Grenzen. Erzählungen.
Bunbuchi Verlag, Hamburg 1986. 106 Seiten.

الفيف تكتيناي: متخطيا كل الحدود.
قصص قصيرة.
دار النشر (بونبوتوخ). هامبورج ١٩٨٦،
١٠٦ صفحة.

الفيف تكتيناي من مواليد ١٩٥٢ في
أزمير، وتروي في قصصها قصة الإنسان
المتخطي لكل الحدود الحضارية، رابطة
بين الأسلوب الواقعي للكتاب الألمان
المعاصرين وبين العناصر الخيالية في التراث
القصصى التركي. ويقدم الفيف تكتيناي في
مبنيون وحصلت على درجة الدكتوراه في
الادب الألماني في عام ١٩٧٩ وتدرس منذ
عام ١٩٨٢ في جامعة أوجسبورج. هذا
وقد حصلت على جائزة المعهد الألماني
للتدريس اللغة الألمانية للتقدير
لقصصها وأعماله الأدبية الأخرى.



Idries Shah: Der glücklichste Mensch. Das große
Buch der Sukh-Weisheit. Aus dem Englischen von
Thomas Poppe. Verlag Herder, Freiburg 1986. 255
Seiten.

أديرس شاه: أسعد الناس. كتاب
الصوفية الكبير. ترجمة عن الإنجليزية
توماس بوبس. دار النشر (هيردر).
فرايبورج ١٩٨٦، ٢٥٥ صفحة.
يعالج هذا الكتاب التراث الصوفي
مقدما لتاريخ الطرائق الصوفية الأربعة
الكبرى عن تعاليم مشايخ الصوفية
وتفسيرها على هدي اهتمامات ومشاكل
إنسان القرن العشرين.

ويركز الجزء الأخير من الكتاب على
الامبراطورية العثمانية آخر الامبراطوريات
الاسلامية العظمى التي كانت تعيش فيها
مجموعات يهودية كبيرة ومهمة، ويربط في
تغلغل نفوذ الغرب في الامبراطورية
العثمانية وبين تدهور التراث الاسلامي
اليهودي المشترك.

تقع الاهمية لهذا الكتاب في
طرحه للتاريخ المشترك بين العرب واليهود
في وقت تواجهنا فيه مرحلة خطيرة من هذا
التاريخ تتمثل في اشتداد الصراع بين
العرب واليهود خاصة بعد قيام دولة
إسرائيل.

برنارد لويس، مؤلف هذا الكتاب
استاذ لتاريخ الشرق الأدنى في جامعة
برنستون وقد سبق لفكره أن قدمته
لقرائها في إحدى أعدادها السابقة.



Anton Joseph Dierl: Geschichte und Lehre des
antischen Alevismus. B. Bakstamus. Dagel,
Frankfurt am Main 1985. 290 Seiten.

انطون جوزيف ديرل: تاريخ وتعاليم
العلوية البكتاشية في الأناضول. دار النشر
(داجيل). فرانكفورت ١٩٨٥، ٢٩٠
صفحة.

يؤمن ٢٥٪ من سكان تركيا بالذهب
العلوي الذي برزت في نطقه الطريقة
البكتاشية عرفت في أوروبا عن طريق
الانكشارية.

نشأت الطريقة العلوية البكتاشية مع
زوح القبائل التركية من آسيا الوسطى
مارا بايران لكي تصل بعدئذ إلى
الأنافول. وكان منطلقها مذهب
الكهنة التركي وتصورات مختلفة من
المذهب الشيعي، أضيف إليها شيئا
فشيئا طبقوس أناضولية عريقة في القدم
وعناصر من ديانة المجوس مع دخول
التأثيرات المسيحية واليهودية عليها.
ولا يجب أن ننسى كذلك تصورات عديدة
من الحركات الانشقاقية في الاسلام مثل
الباطنية والحركة الفرعوية.

وبعد المذهب العلوي البكتاشي في
عداد طوائف الاسلام. ومن سياتيه

Bernard Lewis: Die Juden in der islamischen Welt.
Von frühen Mittelalter bis ins 20. Jahrhundert. Aus
dem Englischen von Liselotte Julius.
Verlag C. H. Beck, München 1987. 218 Seiten.

برنارد لويس: اليهود في العالم الاسلامي.
من فجر العصور الوسطى حتى القرن
الشرين. ترجمه عن الانجليزية ليزلوتيه
يوليوس.
دار النشر (بيك). ميونيخ ١٩٨٧، ٢١٦
صفحة.

يعد برنارد لويس من أهم علماء
الدراسات الاسلامية في الولايات
المتحدة، ويصف في كتابه هذا العلاقة بين
اليهود والمسلمين من بداية القرون
الوسطى وحتى قرنا هذا. فالديانة
اليهودية لم تكن غريبة لا على المسلمين ولا
على المسيحيين. كانت عقيدة تشابه
عقيدتهم، وإن كانت أقدم. وكان للتراث
اليهودي المسيحي في الغرب مثيله في
الدولة الاسلامية أي تراث اسلامي
يهودي.

ولذلك نرى أن العلاقات الثقافية
والحضارية بين السدينتين اليهودية
والاسلامية، على الأقل في العصور
الوسطى، على قدر عميق من الترابط
والاندخال بحيث نستطيع القول بوجود
مايسمى بتكافل Symbiosis حضاري.
طبعاً كانت هناك ازمات في هذه
العلاقات، لكن التسامح في حق اليهود
كان متوفراً في جميع الحقب. ولذا فانه
لا يمكننا أن نتحدث عن اضطهاد اليهود
في المجتمعات العربية الاسلامية.

كان اليهود في العالم الاسلامي أقلية
مثلهم مثل العديد من الأقليات الأخرى،
وغالباً ما كان الدور الذي يلعبونه أقل بكثير
من دور تلك الأقليات. وهذا هو السبب
في أن الكتاب يبدأ بالمحة حول علاقة
الاسلام بالاديان الأخرى عامة ثم يتطرق
الكتاب بعد ذلك إلى بحث منشأ ونظور
التراث الاسلامي اليهودي ويتابعه في
الحقبة الكلاسيكية الشاملة للقرون
الوسطى.

السعداوي وأنا اسلوب امرأة لا تحتاج إلى المساندة من أي إيديولوجية. وسيرتها الذاتية مثال للمعاناة التي تواجهها المرأة في المجتمع الاسلامي المعاصر في تأرجحه بين التراث والحداثة.

وقد ولدت فاطمة المرينسي في مرحلة سمح فيها للفتيات بالدخول إلى المدارس ثم بالوظيفة بعد ذلك. غير أن هذه الحرية النسبية لم تخفف عن المرأة عذاباتها ومعاناتها.

وفي تحليلها للتركيبة الفسقية الايديولوجية لهذا المجتمع المار بازمة حضارية حادة تذكرنا فاطمة المرينسي بحملة مأثورة للعلامة الفيلسوف ابن رشد، دونه منذ أكثر من ٧٠٠ عام ولم يفقد شيئاً من حدائته، يقول ابن رشد:

(من أهم أسباب انحطاط العالم الاسلامي العلاقات بين المرأة والرجل). ولذلك فنحن نتمنى لهذا الكتاب الشجاع ان يجد قراءاً كثيرين وخاصة بين الرجال.

Fatima Memissi: Geschlecht - Ideologie - Islam. Aus dem Französischen von Marie Luise Knott und Brundhilde Wehninger. Frauenbuchverlag München 1987.

فاطمة المرينسي: الجنس والايديولوجية والاسلام. ترجمة عن الفرنسية ماري لويز كنوت، وبرونهيلده فينتجر. دار النشر (فراونبوخ فزلاج). ميونيخ ١٩٨٧.

تقدم لنا فاطمة المرينسي في كتابها هذا دراسة متعددة الجوانب عن العلاقة بين المرأة والرجل في المجتمع الاسلامي ومجتمع ما قبل الاسلام، استناداً إلى النصوص الاسلامية الكلاسيكية. والكتابة استاذة لعلم الاجتماع في جامعة الرباط، والفت الكتاب بعد دراسة مستفيضة للادبيات الاسلامية اردتها بحوارات واستفتاءات بين النساء المغربيات.

لكن فاطمة المرينسي لا تكتب بصفتها عالمة فقط وإنما تكتب ايضاً كأمراة عانت كثيراً من قيود مجتمعتها وهي تروي بصراحة كبيرة احداثاً ووقائع عاشتها أو عايشتها. واسلوبها ليس اسلوب الطعن الهجومي مثل زميلتها المصرية نوال

Frauen in Afrika. Erzählungen. Herausgegeben von Imgard Ackermann. Deutscher Taschenbuch Verlag, München 1987.

المرأة في افريقيا. قصص قصيرة. من تدوين ونشر ارجمارد اكerman. ادر النشر (دويتشر تاشنبوخ فزلاج) ميونيخ ١٩٨٧. القصص الشباني عشرة في هذا الكتاب من تأليف كاتبات من بلاد افريقية مختلفة ابتداء من السنغال وحتى افريقيا الجنوبية. وأعدادها ينشر لأول مرة باللغة الألمانية. والنصوص كلها غنية بالتأملات النقدية والاعتزاز بالنفس تنعكس فيها أوضاع النساء الافريقيات في مجتمعاتهم المختلفة، أوضاع مازالت مجهولة في البلاد الأوروبية. والناسرة السيدة ارجمارد اكerman، استاذة في معهد اللغة الألمانية بجامعة ميونيخ.





FIKRUN WA FANN

46

